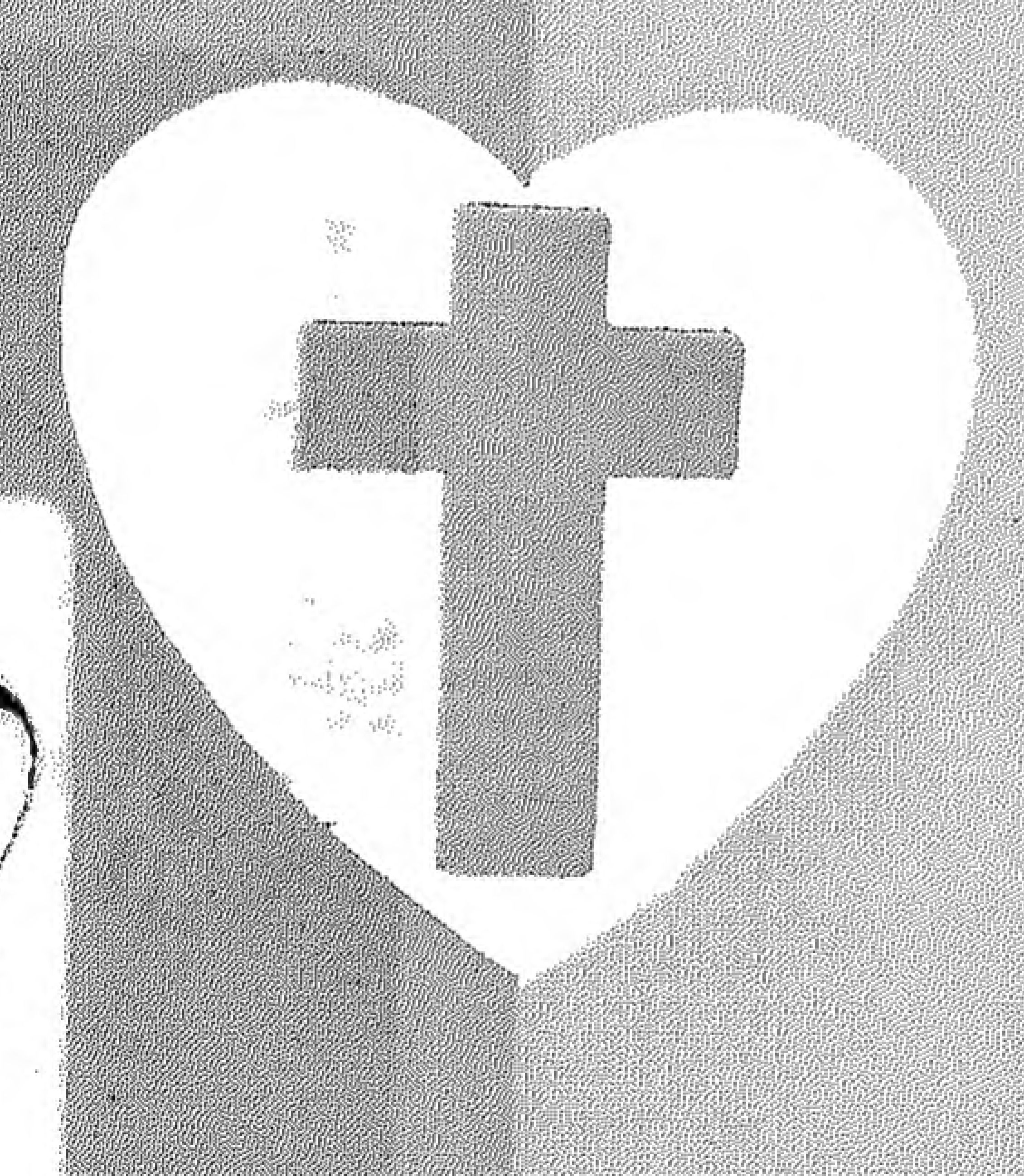
متحف القلوب الكسيرة





قصة طبيب يفقد إيمانه بالله في المستشفى
ثم يجده هناك أيضاً في متحف الألم

في متحف القلوب الكسيرة

قصة طبيب يفقد إيمانه بالله في المستشفى
ثم يجده هناك أيضاً في متحف الألم .

نقله إلى العربية

دكتور عزت زكي

صدر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر
بالاشتراك مع مجمع الكنائس في الشرق الأدنى

محتويات الكتاب

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب طبيب ناجح، كان يحتل كرسى الادارة فى أحد المستشفيات الكبرى بمدينة لندن. وفى بداية حياته الطبية اصطدم بمشكلة الألم التى تقع تحت لمسه وسمعه وبصره بين جدران المستشفى الذى لقبه بمتحف القلوب الكسيرة. وأمام تلك المشكلة الأزلية، مشكلة الألم، فقد ايمانه فى طبيعة الله، وحتى فى وجود الله. وكف عن الذهاب الى الكنيسة.

ولكن الأحداث عينها التى عصفت بايمانه الأول أعادت إليه إيمانه الجديد . . . ومن خلال غيوم الألم الحالكة السوداء استطاع أن يرى قوس قزح محبة الله مرتسماً فى الأفق .

هذا هو الكتاب الذى أعيد طبعه فى بداية نشره فى الأصل الانكليزى مرة كل شهر. والذى نرجو أن يقدم للقارىء العزيز حلا لمشكلة الألم فى هذا الوجود . . .

وها نحن نقدمه للناطقين بالضاد مشفوعاً بصلواتنا الحارة ، لكى يستخدمه إله السماء بلسماً شافياً لجراح القلوب .

الناشرون

الفصل الأول

متحف القلوب الكسيرة

أين هو الرب إله إيليا ؟ ؟ .. اليشع

كنت أمر فى عنابر المستشفى، وبصحبتى واحد من كبار العلماء. وبعد أن مررنا بصفوف الأسرة التى تبدو وكأن لا نهاية لها ، وفوق كل منها شبح هزيل يلتف بملاءته البيضاء، وكأنه مومياء تلتف بالأكفان ، التفت إلى ذلك الصديق وقال لى بصوت فيه رنة الأسى العميق .

ـ كم من الوقت بقيت فى هذا المكان الرهيب ؟

ـ ولما أجبته بأننى قضيت ستة عشر عاماً من عمرى فى المستشفى، قال فى دهشة :

ـ ستة عشر عاماً وأنت ترى كل يوم هذه المآسى المروعة !

ـ لو كنت مكانك لما استطعت احتمالها، ولانتهى بى الأمر إلى الجنون أو الانتحار .

وهذا هو الشعور عينه الذى يبديه الكثيرون . بل إننى أعرف رجالا ونساء يكاد يغمى عليهم حينما يدخلون الى رحاب أحد المستشفيات. انهم يرون المرضى فى آلامهم، والموتى فى النزع الأخير، وتمتلىء قلوبهم بالأسى. قال لى أحدهم « لماذا تدعوننى لزيارتك بالمستشفى ؟ هل تريدنى أن أضيف آلاماً على آلامى». ان المستشفى بالنسبة إليهم هو بيت الرعب والمخاوف . . .

قرأت منذ مدة كتاباً كتبه أمريكى عنوانه « دار المصلوب ». والعنوان رمزى يشير إلى قسوة الآلام. ويروى المؤلف فى مستهل كتابه قصة ما شاهده بالعيان فى أحد مستشفيات نيويورك . انها قصة العرق والدم والآلام الروعة والصرخات المرة والدموع الحارة واليأس القاتل والايمان المحطم . والكتاب حتى نهايته تقرير واحد متصل تسوده الظلمة واليأس والآلام، ولا تظهر فيه شعاعة واحدة من أشعة الرجاء ...

وألقيت بالكتاب جانباً ، وفى القلب مرارة وفى النفس أسى . فالكاتب لم يرسم لنا صورة صادقة للحياة فى المستشفى ، ولكنه قدم لنا خطوطاً باهتة مشوهة . ومع ذلك فإنى لا ألومه ولا ألوم الآخرين معه . كل ما آخذه عليه هو أن نظرته لم تصل الى الأعماق . لقد كانت نظرة سطحية شاهدت الغيوم الحالكة ، ولكنها لم تنفذ الى ما وراء الغيوم . ولن يشاهد عاقل ينظر بعيون مادية الى الألم سوى هذا. ولكن لو كان الأمر يقتصر عند هذا الحد ، لكان ذلك الكاتب على حق ،

ولا تنتهى الامر بالأطباء والممرضات إلى مستشفيات الامراض العقلية. إلا أننا نستطيع أن نلمس شيئاً آخر فى دراستنا لحالة المرضى ومعاشرتنا لهم . وهو أنه تحت قشرة الجليد السطحية تنمو أجمل الورود وأبدعها، الصبر والبشر والاحتمال ـ الايمان والرجاء والمحبة ـ والشكر والعطف والمشاركة الطيبة . . قال أحد الاطباء المسيحيين :

« انك تستطيع أن ترى فى عنابر المستشفيات اليوم أمثلة حية من الفضائل المسيحية اكثر مما ترى فى أى مكان آخر. انك تلمس فى المرضى أمثلة قوية من الشجاعة والبطولة والاستعداد التام لاحتمال ما يتقدم به الله إليهم بلا تذمر . وهكذا يخرج الناس من دور العلاج وقد تخلصوا من أمراضهم الجسدية والروحية » .

وقال صديق آخر قضى فترة فى رحاب المستشفى :

«لقد فقدت إيمانى بالله فى ميدان القتال، ولكننى عثرت عليه هنا..»

على أننى اعترف بأنه مر على وقت كدت أفقد فيه إيمانى بالله هنا فى مقر عملى . فلقد كان أول عهد لى بالمستشفيات صدمة كبرى ملأت قلبى بالحزن والألم حتى وصلت الى حد التساؤل : اين هو الرب الإله ؟ لقد نشأت فى عائلة متدينة وتربيت فى بيت مقدس . وكان شعار عائلتى معلقاً على الجدار ، أراه كل حين !! : « السيد المسيح هو رئيس هذا البيت .. الضيف غير المنظور على مائدة الطعام . . المستمع الصامت لكل

همسة تدور فيه». وبهذه الروح المقدسة غادرت البيت مسافراً الى مقر عملى فى لندن فى نهاية الحرب العالمية الأولى. ومن بين الممتلكات القليلة التى حملتها معى نسخة من كتاب الترانيم، كتبت عليها أمى فى أول صفحة منها .

« سلم للرب طريقك وهو يجرى.
تمسك به فى كل ظروفك .
وستجده فى الأيام المظلمة .
سراجك وقوتك ومرشدك .
من يقيم ساكناً فى محبة القدير . . .
سوف يبقى ثابتاً حصنه صخر الدهور . . . »

« سوف يبقى ثابتاً ». هكذا رددت هذه الكلمات وأنا أقرأها المرة بعد الأخرى . ولكن الايام أثبتت لى بعد ذلك ان ثباتى سوف تمتحنه العواصف والرياح . . .

وفى أول أسبوع قضيته فى المستشفى إلتقيت بحالات اثارت حيرتى وألمى .. رأيت يد الموت القاسى تنتزع زوجة حبيبة من أحضان زوجها، وأماً لثلاثة أطفال تفارقهم للمصير المجهول . رأيت شاباً يتلوى على سرير المرض وداء السرطان الرهيب يعتصر كيانه . رأيت طفلا فى الثانية عشرة من عمره قضى عليه أن يبقى طريح الفراش للنهاية. وما من ذنب

جناه يستحق عليه هذا المصير . وإزاء هذه المناظر المرة شعرت بايمانى يهتز ويترنح . لماذا يسمح الله بكل هذه الأمور ؟ ان كان الله حقاً كلى الحكمة وله كل القدرة والمحبة ، فلماذا يترك هذه القلوب تسحقها عجلة الحياة ؟ لماذا يسمح بأن يقاسى هؤلاء الأطفال الأبرياء هذه الآلام ؟ ولم أنل إستجابة لهذه التوسلات سوى صدى لصرختى الصامتة النابعة من أعماق قلبى ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ !

وبمرور الزمن إلتقيت بحالات أخرى زادت فى بعدى عن حظيرة الايمان . فبعد أن امتلأت بالشك فى جود الله وصفاته، تجربت بالشك حتى فى وجود الله . ففى يوم من الأيام حمل المرضون الى المشرحة جثة شاب فقد حياته أثر سقوطه من نافذة بالطابق الخامس فى أحد الفنادق. وكان شاباً له مكانته المرموقة فىدائرته. وانتهت حياته ولما يمض على زفافه يوم واحد . وكان نصيبى أن أوصل النبأ المروع إلى عروسه : عروس الليلة الواحدة . وإنى لا أستطيع أن أنسى منظر تلك الفتاة الحلوة حينما صدمها النبأ. وقفت أمامى مشدوهة وكأنها لا تعى شيئاً مما أقول . ثم رأيتها تنهار على مقعد قريب والدموع تسيلمدراراً علىوجنتيها. وتركتها قليلا لأنى أعرف أن الراحة فى الآلام قد تأتى بعد البكاء . ولما عدت اليها بعد نصف ساعة كانت العاصفة قد هدأت قليلا ، واستطاعت الفتاة أن تنطق ببعض الكلمات والتنهدات تخنق صوتها . تحدثت عن حفل العرس الذى تم فى الليلة السابقة، عن مظهر عريسها وابتسامته وطيبته..

عن مشاريعه المتحمسة لبناء عش المستقبل . وبعد ان انتهت من هذه، بدأت تتحدث بصوت وكأنه يأتى من بعيد، معيدة نفس الكلمات التى نطق بها الكاهن فى خدمة الزواج ، حتى جاءت الى القول « وما جمعه الله . . . ». وعندها توقفت عن الكلام وتهدج صوتها، وصرخت فى تأثر . .. «ما جمعه الله!» : هل يجمع ويفرق فى يوم واحد ؟ كيف يمكن أن يكون هناك إله يسمح بكل هذا ؟

ورأيت فى هذه الصرخة مسماراً جديداً يدق فى نعش إيمانى . . . وكأنما عدو الخير أراد أن يضغطنى ضغطة أقوى . فبعد وقت قصير جابهتنى حالة جديدة هى حالة سيدة شابة فى الثلاثين من عمرها حكم عليها الأطباء بالموت العاجل . ولعلها أدركت من نظرات الاطباء المصير الرهيب الذى ينتظرها . وبينما كان زوجها يقوم بزيارتها أمسكت بيده وهتفت منتحبة . . . « عزيزى هارى ، هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً » . . . وحاول الزوج ان يتمالك أعصابه ولكنه انهار أخيراً ، وانحنى على جبين زوجته بقبلة والدموع تسيل من عينيه، وصرخ قائلا « عزيزتى . . . آه يا عزيزتى . . . »

وكشخص فقد عقله انتفض واقفاً ، وكأنما الدنيا أظلمت فى عينيه، واندفع خارجاً من المكان . . .

وبعد ساعة أتى الكاهن إلى سرير المريضة ليوصل إليها رسالة

التعزية والسلام . وبعد ان انتهى من حديثه ، أشرق وجهها قليلا ونظرت إليه من خلال دمعة لا تفيض. وقالت هامسة «اشكرك يا ابنى.. انى أحسن الآن » .

وفجأة تغير الموقف كله ، فمن بعيد سمعت أصوات خطوات صغيرة تقترب من المكان. ومزق السكون صوت طفل صغير لا يتجاوز الرابعة من عمره، وهو ينادى فى لهفة « مامى . . . مامى . . . »

وأربد وجه المريضة وفاضت الدموع من عينيها. وقالت وهى تغالب انفعالها . . .

« انا هنا يا حبيبى . . . تعال . . . تعال » .

وصعد الطفل على السرير وارتمى على صدر أمه . وتطلعت السيدة المريضة الى الكاهن ، بنظرة جامدة وقالت :

« ابنى ، لو كان لك مثل هذا الطفل ، هل تكون على استعداد لمفارقة الحياة وتتركه وحيداً ؟ »

وبدا لى أن هذا السؤال يحتاج الى اكثر من جواب . ولكننى كلما تأملت فيه لم أحر جواباً . أن نأخذ أماً من طفلها ؟ . . . أن نحرم طفلا فى الرابعة من عمره من محبة أمه؟ ان هذا منتهى الرداءة والقسوة.

هل يمكن ان يكون هذا عمل الإله الصالح ؟ لا يمكن أن يكون هذا إلا عمل الأقدار العمياء، وليس عمل أى إله فى هذا الوجود . . .

وعدت بالذاكرة الى اختبار مماثل عرفته فى طفولتى . كانت سنى فى ذلك الحين لا تزيد عن التاسعة وكانت أمى مريضة . وثقلت عليها يد المرض . ورأيت الطبيب خارجاً من غرفتها . فأسرعت وراءه وسألته فى براءة الأطفال « هل ستموت أمى ؟ . . . » . ولا أنسى الآن نظرته إلى ونبرات صوته وهو يربت على كتفى قائلا « مسكين أيها الصبى . مسكين ! » . . . وإنى أذكر بأننى أسرعت الى غرفتى وارتميت على فراشى، ودفعت رأسى فى الوسادة وأطلقت العنان لدموعى . وعرفت فيما بعد أن أمى كانت فى تلك الساعة أقرب الى الموت منها الى الحياة . نعم أذكر مشاعرى وآلامى والمرارة التى ملأت فؤادى . وها هو طفل صغير أمامى يشاركنى الشعور عينه، ولكنه على الأقل لا يدرك ما أدركته أنا لأنه صغير السن . ومع ذلك فانه من الأمور القاسية أن يعانى هذا الطفل مرارة اليتم فى هذه السن .

على أن الضربة الأخيرة التى تلقاها إيمانى كانت فى عنابر الأطفال المرضى . كان أحد خدام الدين يتحدث إليهم . وبعد ان انتهى من حديثه ارتفع صوت طفل منهم متسائلا .

ـ هل يستطيع يسوع أن يفعل أى شىء ؟

وجاء الجواب ـ نعم .

ـ وهل هو حقاً يحبنى ؟

ـ نعم

ـ إذاً لماذا لا يشفى لى ساقى؟

وصدمتنى هذه الكلمة الأخيرة : لماذا؟ مرة أخرى . وعادت الى ذاكرتى جملة قرأتها فى احدى قصائد تنيسون ، أجابت بها طفلة مريضة على أحد رجال الدين، وهو يلح عليها أن تطلب الى الله أن يشفيها ـ قالت الطفلة . . .

« سوف أفعل، ولكن ان دعوته كيف يعرفنى اننى أنا التى أدعوه. وهذا العدد الكبير من الأسرة فى عنبر المستشفى ؟ »

نعم . . . كانت هناك أسرة كثيرة أمامى . وأسرعت الى سرير منها ، كانت ترقد عليه طفلة صغيرة ذات شعر ذهبى وعينين ضاحكتين، وهى تضم الى صدرها دمية فى شكل دب تكاد تصل الى حجمها . ولقد بدا لكل إنسان انها خلقت للضحك والحياة. ولكن الداء القاسى، داء السرطان، لن يمهلها فى هذا الوجود اكثر من شهر واحد .

ولذ يتأمل الانسان هذه الحالات هل يمكن أن يؤمن بمحبة الله ؟

لقد تحطمت كل العقائد الجميلة التى تعلمتها فى طفولتى على صخور الشك وعدم الايمان . وتوقفت عن قراءة الـكتاب المقدس . وامتنعت عن حضور الـكنائس. وانقطعت عن الصلاة.وفقدت الحياة كلها طعمها أمامى وقلت فى نفسى : الـكل باطل وقبض الريح . . . من يدرينى ان كانت نفس الإنسان تصعد إلى أعلى ونفس البهيمة تهبط إلى أسفل . . .

فى رحاب الـسكون جئنا
كيف هذا ؟
لست أدرى . . .
فى طريق الأرض نسعى
نحو ماذا ؟
لست أدرى . . .
مثل موج البحر نحيا
من قدم
أو لهدى الريح تجرى
للعدم
باطل كل الحياة
للمات . . . للمات . . . للمات . . .

وفى خلال هذه الفترة حانت فرصة قضاء عطلة نهاية الأسبوع

فى منزلى فى الريف . وفى يوم الأحد رأيت أمى تتهيأ لمغادرة البيت والذهاب إلى الكنيسة ، ولكننى لم أرتد ملابسى، وبقيت فى مكانى حيث أنا . وقالت أمى فى دهشة .

ـ اليوم يوم الأحد يافيليب. هل نسيت؟ ألا تأتى معى إلى الكنيسة»؟ وأجبتها فى اقتضاب « كلا » .

وغامت سحابة من الحزن على وجه أمى، فاضطررت أن أستطرد كاذباً . . . « لقد بقيت محبوساً طيلة المدة الماضية فى مقر عملى، واحتاج إلى نزهة خلوية. وأعتقد أن هذا سيكون الأفضل لى . . . »

وابتسمت أمى فى أسى. ورأيت عينيها مغرورقتين بالدموع . ولو أتيح لى أن أستطلع ما يدور بخاطرها لوجدتها تقول فى نفسها ... ترى ماذا حدث لولدى العزيز ؟ انه لم يتخلف مرة واحدة عن الذهاب إلى الكنيسة طيلة الفترة الماضية . هل أثرت عليه الحياة فى لندن ؟... ولعلها أضافت القول « بلا شك سوف يكون لسدوم وعمورة حالة اكثر احتمالاً فى يوم الدين مما لتلك المدينة»... نعم ان أقسى اكتشاف تكتشفه أم متدينة هو حينما ترى ولدها يخيب آمالها الطويلة فيه، ويتخلى عن التعاليم التى تلقنها فى طفولته .

وحينما أتى المساء لم أرد أن أجرح قلب أمى مرة أخرى. فقررت أن

أرافقها إلى عبادة المساء • وأشرق وجهها بالبشر والسعادة، ولكنها ما كانت تدرى انها مجرد مجاملة لا غير •

على أنى لاأذكر شيئاً من العظة التى ألقاها الواعظ • كل ما أذكره. الترنيمة التى رتلها العابدون قبل الخدمة، وكانت من المزمور الثالث والعشرين •

الرب لى راع ؛
فلم يعوزنى شىء.
يسكننى مراعياً
خضراً إلهى الحى .

وتطلعت حولى الى الجمهور المرتل • وتساءلت فى نفسى ، هل تراهم يعنون ما ينطقون به ؟ ربما. فى هذه الفرصة المنعزلة عن العالم التى تتجه فيها القلوب والأفكار الى الأمور الروحية ، قد يملأ الحماس الكاذب قلب الإنسان ويدفعه الى التحليق بأجنحة الخيال فى آفاق أخرى .. ولكن هل تراهم يهتفون بكلمات تلك الترنيمة لو أحاطت بهم المتاعب، وساروا فى وادى الظلمة وظلال الموت ؟ هل يتمسكون بايمانهم هذا فى وجه المتاعب والأمراض وأمام البحر الأسود؟ هل يثقون بأن الله راعيهم الطيب لو قدر لواحد منهم بأن يتقلب على فراش المرض القاسى ! وهكذا لم تأت هذه العبادة بشبع لقلبى أو سلام لنفسى ، ولكن حضورى

ملأ قلب أمي بالسرور . وانى أذكر كيف أمسكت بذراعى بكل سعادة ونحن نخرج من الكنيسة ونسير عائدين الى المنزل . لقد اختفت كل غيوم الصباح وتبددت الى غير رجعة . . .

وبعد يومين جاء ميعاد عودتى لعملى . وفى المحطة وجدت فى كشك الجرائد كتاباً قديماً عنوانه « سر الألم » . واشتريت هذا الكتاب لأتسلى بقراءته فى القطار . ومع أنه كان سبب بركة عظمى وتعزية لكثيرين إلا أننى لم أجد فيه ما يشفى غليلى . لقد تحدث كاتبه عن الألم من وجهة نظر العلم ورجل الدين . قال عنه انه ناقوس الخطر الذى يدفع العالم الى الطبيب، ويوجه الطبيب الى العضو المصاب، فيصحح الأوضاع أو يبذل جهده فى هذا السبيل . ولو فقد الإنسان إحساسه بالألم ، كما يحدث فى بعض الأمراض القاسية التى تقتل خلايا الجهاز العصبى ، لكانت فى هذا الطامة الكبرى . ثم استطرد الكتاب يقول ان الألم هو المهذب لطباع الانسان، وهو الذى يدفعه لتجنب ما من شأنه ان يسبب له المتاعب. فهذا الطريق الشائك يبتعد عنه لأنه يمزق رجليه بالأشواك. وهو يعرف أنه اذا كسر ناموس الحياة عليه أن يدفع الثمن .

وجاء دور رجل الدين ليتحدث لنا عن رأيه فى الألم . قال ان الألم يرسله الله إلينا ليعلمنا الصبر والاحتمال، وانه يهذب شخصيتنا ويصقلها، ويساعدنا على مشاركة الآخرين فى إحساسهم بالألم .

ولو أتيح لى أن ألتقى بالمؤلف ، لجعلته يرى بعينى رأسه حالات كان الألم فيها وبالا على صاحبه دفعه الى الثورة والتمرد والتجديف وقسوة القلب واللعنات والأقسام . أما القول بأن الألم لا يصيب إلا من يكسر ناموس الحياة الطبيعى ، فنى إمكانى أن أرد عليه بحالات أناس كانت لهم الحياة المعتدلة الكريمة الطيبة، ولكن المصائب حلت بهم . قالت لى سيدة فى يوم من الأيام عن قريب لها : «لقد كانت حياته طبيعية وطيبة ومعتدلة ، ولماذا حلت به كل هذه. لست أدرى ؟»

ثم ماذا عن آلام الأطفال؟ ما الذى جنوه لكى يستحقوا كل هذا ؟ وأية فائدة من السماح لهم بأن يجتازوا، وهم لا يدركون شيئاً، فى وادى الدموع ؟ ان إلهاً طيباً صالحاً قادراً، كما يصوره لنا رجال الدين، لا يمكن بأن يسمح بهذه الآلام والمآسى تتكرر على مسرح الحياة الإنسانية ... لقد صمت أصدقاء أيوب أمام مشكلة الألم القاسية. وقد جدفت زوجته على الله ، ولم تر أمامه إلا سبيل الانتحار .

وحينما ذهبت بعد ذلك الى مرضاى، كان قلبى يردد كلمة واحدة، هى تلك التى رددها جيته فى القديم حينما سمع عن المآسى المروعة التى حدثت فى زلزال لشبونه والأبرياء الذين فقدوا حياتهم فصرخ : أين هو الله ؟ وماذا يعمل الآن : ومنذ ذلك الحين أصبح المستشفى بالنسبة لى متحف القلوب الكسيرة .

الفصل الثانى

بين السماء والأرض

وحينما تطبق عليك الخطوب،
فتصرخ باكياً على خسائر الأمس
تطلع لترى سلم يعقوب
بين السماء والأرض.

« طوسون »

لم أكن قد التحقت بعد بالعمل فى مستشفى كبير بلندن . ولكن الظروف هيأت لى مركزاً ممتازاً هناك. وكما يقول شكسبير « انه مهما كونا مصائرنا المشوهة بأيدينا العاجزة، فان هناك قصداً ألهياً يستتر وراء كل هذا» . وفى مثل السامرى الصالح يتحدث السيد المسيح قائلا: « وعرض ان كاهناً مر بالمكان » . ويعلق أحد المفسرين على كلمة « عرض » بأن الله الأزلى قد دبر هذه المصادفة ، تماماً كما كان السيد متعباً حينما مر بالسامرة وجلس على البئر حسبما اتفق . ولكن تلك المصادفة أيضاً كانت مدبرة بمشيئة الله لخلاص نفس خاطئة وبلدة بأكملها . . .

أقول عن نفسى بانه « تصادف » اننى كنت ماراً فى أحد عنابر

المرضى من الرجال . الصدفة عينها التى دفعت السلمرى للمرور حيث سقط المسافر الجريح . ولكن الأخير كان ليمد يد المعونة للمريض . أما أنا فقد نلت العون من يد مريض منكسر القلب .

أقول بان تلك الصدفة قد دبرها الله فى عنايته. فبينما كنت ماراً بالعنبر سمعت من بعيد مريضين فى آخر صف من صفوف الأسرة يتناقشان. قال الواحد لزميله . . . من اليسير جداً أن يجد الانسان ايمانه بالمسيح هنا فى المستشفى .

ووقفت مسمراً فى مكانى . هل يؤمن المرء بالمسيح فى المستشفى ؟ ان هذا هو آخر مكان يعثر فيه على ايمانه . بل أكاد أقول انه المكان الأول الذى يفقد فيه المؤمن إيمانه . ولما اقتربت من المكان قررت ان اسأل المتكلم . قلت له .

— هل قلت بان هذ المكان هو الذى يجد فيه المرء إيمانه ؟

فنظر الى نظرة ملؤها الثقة. وقال مشيراً الى احدى الممرضات وهى تقدم الدواء الى المريض الآخر فى السرير المقابل . . . .

— نعم هذا هو العمل عينه الذى كان يسوع يقوم به وهو على الأرض . لقد كان يجول بين الناس يصنع خيراً .

ثم صمت قليلا وعاد يقول :

— لو لم يأت المسيح الى العالم، لما كانت هناك مستشفيات. . .

فقلت فى نفسى انها الثقة الكاذبة التى تدفع بالانسان الى الاستنتاج الخاطىء. فلو كان المسيح حقاً هو الذى قامت على تعاليمه هذه المؤسسات، لكانت هذه قبل كل شيء مؤسساته هو، ولكان من المنطقى أن نجده هنا قبل أى مكان آخر . ومع ذلك فالعكس صحيح ، لأننى فقدت ايمانى فى هذا المكان .

وخطرت ببالى كلمات الشاعر « كوبر »: «ان الله هو أعظم شاهد لنفسه. وسوف يوضح كل شيء بآيات لا تقبل النقض. . . » . وعجبت فى نفسى وتساءلت هل يستجيب الله لى ، هل سيشرح كل شيء ! ليته يفعل .

وفى المساء أمسكت بكتاب للكاتب « فرانك بورهام » . وقرأت فيه هذا القول تعليقاً منه على ماورد فى كتاب آخر . قال « يتحدث الدكتور والاس قائلا انه كلما سار مع مجرى النهر اكتشف سلالات من البشرية أقوى عوداً وأجمل جسماً . حتى اذا وصل الى مكان لم تطأه قدم رجل متحضر ، رأى رجالا ونساء يصح أن نتخذ منهم مثالا ينقل عنه الفنانون لوحاتهم. . .». ثم يضيف الكاتب معلقاً :

« السبب واضح كل الوضوح ، فالانسان البدائى الذى لم تصله بعد أسباب الحضارة، لا يعرف شيئاً عن ناموس المسيح، فهو لا يحمل أحمال

الآخرين . المريض لا بد أن يموت . الضعيف يترك فى الغابات طعاماً للوحوش . الفارق الوحيد بين الروح البربرية والانسان المتحضر هو أننا قد تعلمنا أن نحمل فى أنفسنا احمال الآخرين. وهكذا نتمم ناموس المسيح . . .

وأشرق على النور ضعيفاً خافتاً من خلال هذه الكلمات. وبدأ إيمانى القديم ينتعش مرة أخرى . ان المستشفى هو المكان الأول الذى نحمل فيه أحمال اخوتنا. وفى حملنا لأحمالهم آلام ومتاعب . وفى هذه الآلام والمتاعب اظهار لروح المسيح .

هذه أول شعاعة من النور رأيت فيها يسوع فى المستشفى . انها الخطوة الأولى فى طريق طويل، ولكنها الى الأمام وليس الى الوراء . . . الخطوة الأولى ووجهتى كنعان وليس بعيداً عنها .

ولقد ذكرت من قبل قصة الطفلة المصابة بداء السرطان، والتى كانت سبباً فى زعزعة إيمانى فى جود الله وصلاحه . أقول لكم ان هذه الطفلة عينها هى التى قدر لها أن تعود بى مرة أخرى الى حظيرة الايمان .

ففى أحد الأيام كنت اتفقد عنابر المستشفى للأطفال، وشاهدت سيدة تجلس الى جوار سرير الطفلة. كانت لا تتجاوز الثلاثين ربيعاً . وفى عينيها كان يبدو الحزن والانكسار. قالت لى فى إقتضاب ان الطفلة ابنتها . وانها كل شىء بالنسبة لها فى الحياة . وتذكرت كلمتها هذه

حينما سمعت بعد ذلك بقصتها . فقد ولدت ابنتها هذه في الشهر السابع بعد زواجها . وحاول الأطباء أن يقنعوا الوالد العنيد أن هذا أمر طبيعي قد يحدث في أحيان كثيرة. ولـكنه رفض هذه الآراء كل الرفض، وأصر على أن الطفلة ليست إبنته . وتحول البيت إلى جحيم . ولو أن الزوج لم يرض بالانفصال عن عروسه، وقبل بأن يحتفظ برباط الزوجية شكلياً أمام الناس تجنباً للفضيحة ، لـكنه وضع شروطاً قاسية لتنشئة هذه الطفلة . فلا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تظهر أمامه . وحينما يصل في المساء إلى المنزل يجب أن تكون في سريرها في غرفتها . وفي أيام العطلة الأسبوعية تبعث بها أمها إلى ذويها.

ومشت السنوات سراعاً والأب لم يتحدث إلى ابنته طوال هذه المدة ببضع كلمات. بل ولم يخاطبها الا بما تقتضيه الضرورة. ولـكن تلك الظروف أثرت تأثيراً سيئاً على صحة الطفلة . لقد بدا ان تلك الأرض الصخرية لا تصلح لنمو هذه الوردة اليانعة. فسرعان ما لزمت الفراش وجاء تقرير الطبيب قاسياً مروعاً... السرطان. وجن جنون الزوجة وأسرعت تحمل الطفلة الى المستشفى، وأيد الفحص هذه النتيجة المؤسفة، وزاد عليها أنه لا أمل في شفاء الفتاة.

لقد أتت الينا تلك الطفلة مريضة ، كسيرة القلب. ولـكن محياها الضاحك وروحها الوديعة جعلا كل واحد بالمستشفى من المرضى الى الممرضات خادما لها . أهذا عجيب ؟ . . . لقد كان لها القلب الذهبي والروح العطوفة ، التي تخجل اكثرنا خدمة وتضحية . وحينما أخذت

المرضات طفلا فى سرير مجاور لها لاجراء عملية الغدد له، أبدت الفتاة عطفاً واهتماماً، وهتفت لهن فى تأثر « أرجوكم ألا تؤلموه، أنه صغير، صغير جداً . . » لا تؤلموه ! مع أنها كانت منذ لحظات تتلوى من شدة الألم .

وبعد عدة أيام رأيت رجلا يجلس إلى سرير الفتاة المريضة . كان التشابه الكبير بين ملامحها وملامحه يشير بأكثر وضوح الى أنه والد الطفلة. أما الأم فكانت جالسة فى مكانها، منحنية الرأس مغمضة العينين، وقد بدا كأنها لم تلاحظ وجود الرجل . فلما رفعت عينيها أخيراً وشاهدته ، سرت فى جسدها الرعدة، وهبت واقفة فى مكانها. ثم أسرعت بالابتعاد عن المكان. أما الطفلة فقد كفت عن مداعبة دميتها حينما لمحت والدها، وانكمشت فى سريرها فى خوف وسكون. ولكن الوالد مد يده فى حنان ظاهر. وراح يربت على ذراعى طفلته ويخاطبها بكلمات المحبة ، مما أثار دهشتى . وعلمت من الممرضات بعد ذلك أنه بدأ يقوم بزيارة طفلته المريضة كل يوم تقريباً .

ولقد لمحت بنفسى هذا المنظر يتكرر بعد أسبوعين تماماً من ذلك التاريخ ، ولكن بصورة أخرى . فبعد أن شاهدت الزوجة زوجها يقترب وأسرعت بمغادرة المكان حسب العادة حتى ينتهى من رؤية ابنته ، ووقفت فى الممرات الخارجية . نادتها طفلتها قائلة . . .

« تعالى يا مامى . انه بابا ». لقد بدا وكأن ضباب السنين قد أنقشع

للأبد . . . ولم تصدق الأم أذنيها فوقفت مترددة فى باب العنبر . . .
ورأت الطفلة أمها من بعيد . ونظرت إلى الأب نظرة فيها ضراعة وتوسل .
وهمست لأبيها . . . بابى . . . انظر ، ها هى مامى . أرجوك ، قل لها أن تأتى لأنى أريدها » :

وأحنى الرجل رأسه فى تأثر ، وقام من مكانه الى حيث تقف الأم . وأمسك بيدها عائداً إلى سرير الطفلة المريضة . . . ومن يستطيع أن يوحد قلبين متنافرين إلا قلب الطفولة البرىء الصافى . . . من يستطيع أن ينسى اساءة الماضى ويغتفر ما حدث إلا النفس الطهور ؟ لقد كانت هذه الطفلة على أعتاب الأبدية تسكب نفسها رويداً رويداً ، ولكن على جسدها المتهافت المزن توحد قلبان ، وعاد الصفاء الى نفسين ، وعرف الحب طريقه إلى بيت منقسم متنافر ، وغردت طيور السعادة فى منزل سادته وحشة الشتاء . لقد كانت الطفلة على وشك فقدان حياتها ، ولكنها فقدت حياتها لتقيم على انقاضها بناء جديداً وبيتاً سعيداً .

بل الأكثر من هذا . لقد أعادت إلى هذه الطفلة إيمانى فى جود الله وحكمته . وعرفت السر الذى من أجله أتت الى هذا المكان ، وتحملت من آلام . . .

لقد أشرقت هذه الطفلة علينا جميعاً كشمس الصباح المتألقة ، ففتحت فى قلوبنا ورود السعادة والثقة والطهارة والايمان ، « لأن لمثل هؤلاء

ملكوت السموات» . أما هى فإن تربة الأرض المليئة بالأشواك ما كانت صالحة لها . فاختارها البستانى الأعظم إلى جنات الفردوس .

ولحقت بهذه الحادثة حادثة أخرى، كان لها الأثر الكبير فى حياتى. فقد أدخلت إلى المستشفى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها وكانت مريضة بنفس الداء القاسى : السرطان . بل أن اسمها كان مشابهاً لإسم الطفلة السابقة : « دوريس ». كانت نوبات الألم القاسى تعتصر كيانها فى فترات متقاربة ، وكان هذا يبدو من تقلص عضلات وجهها وجسدها. ولكننى لم أسمع منها طيلة الشهور الأربعة التى قضتها فيما بيننا أدنى تذمر أو شكوى. كانت دائماً تقابلنى بابتسامة حلوة حينما كنت أمر بجوار فراشها . وفى ليلة من ليالى الآحاد ، كنت أراقبها من بعيد وهى تستمع إلى عبادة مسيحية مذاعة على أمواج الاثير . وبعد الوعظ بدأ الترنيم وشاهدتها تشترك مع الجوقة فى الترنيمة الختامية . وحينما وصلت إلى الأعداد التى تقول :

لا حزن . . . لا بكاء
لا ضيق ، لا دموع
ولست أخشى شراً
ان سرت مع يسوع . . .
القبر عنه زالا

ظلامه الرهيب
والموت ليس يخشى
فى محضر الحبيب . . .

تألق وجهها بنور سماوى عجيب، وبدت كأنها تحلق فى أجواء السماء وليست من هذه الأرض . لقد أصغيت إلى هذه الترنيمة عينها فى أكثر من مرة . ولكنى أقول لكم بأننى لم اشعر فى أية فرصة من تلك الفرص بالروعة والخشوع والجلال قدر ما شعرت بها فى هذه الفرصة وأنا أصغى الى الفتاة بصوتها الملائكى، وأشاهد يديها وقد تشابكتا فى تعبد، وخلجات وجهها الجميل المعبر .

واقتربت منها بعد نهاية الترنيم، وسألتها متلطفاً :
ـ أين تعلمت الترنيم ؟
فابتسمت وقالت فى وداعة :
ـ فى الكنيسة . . . لقد كنت احدى فتيات الجوقة .

وفجأة تذكرت ما حدث معى فى كنيستنا الصغيرة فى « يوركشير » حينما كان العابدون يترنمون بالمزمور الثالث والعشرين، وكيف انى قلت فى نفسى ، هل تراهم يترنمون برعاية ربنا لهم لو كانوا على فراش المرض ؟ هنا لقيت الجواب .

ان الديانة الحقيقية هى التى تكفى صاحبها وسط الأزمات وتثبت

أقدامه فى وجه المتاعب والضيقات . وها أمامى المثل الحى: فتاة فى أقسى ساعات الضيق . . . وعلى أعتاب نهاية العمر ، تتعلق فى سلام بتلك المرساة الأمينة الصادقة، وتجد سلامها الكامل فى مسيحها الصادق العون.

وكان والداها يقومان بزيارتها كل يوم . لقد كانت ابنتهما الوحيدة. وعليها كانا يعلقان آمالهما فى الحياة . وها هو الأمل الوحيد يذوى، ويتضاءل وهو فى عمر الزهور . وفى اللحظات الأخيرة من حيـــــاة « دوريس » على الأرض، لم تفارق الابتسامة الحلوة شفتيها حتى أغمضت عينيها فى سلام . كانت الدموع حولها : دموع الأب الحزين والأم الثكلى. وبعد فترة قال الأب . . . كفى . . . كفى . . . يا عزيزتى . ينبغى ان نظهر ثقتنا فى جود الله ومحبته ، إله إبنتنا دوريس . . . قالت لى الأم بعد ذلك. « لقد أظلمت الدنيا فى عينى حينذاك . وظننت ان كل شىء قد انتهى ، ولكن يبدو ان قوة جبارة استطاعت أن تسندنى. وتذكرت قول النبى عن الله « يعطى المرء قوة . ولعديم القدرة يكثر شدة» .

أعود فأقول إنه لا شىء يلمس قلبى بلمسة الأسى قدر آلام الطفولة. وإنى أشارك ذاك الذى قال . . . «ان كنا نراه من الجهل أن نقرع صدورنا أمام جسد شيخ شبع من أيامه وآلامه وأتى الموت مخلصاً رفيقاً يحطم قيوده، ويرفعه كما يرفع الغمر فى أوان الحصاد، فانه من الأمور المؤسفة حقاً أن نرى البراعم الغضة تعتصرها أنامل الموت ، قبل أن تتفتح عن زهورها اليانعة . . . »

ولقد لمست حالات كثيرة مثل هذه بطبيعة عملي . فماذا كان شعوري بالنسبة لها في النور الجديد الذي اكتشفته؟

لعل القارىء يرى انني اقتبست عنوان هذا الفصل من إحدى قصائد الشاعر فرانسز طومسون، والتي يقول فيها: اننا حينما نرى ليل الخطوب يطبق بظلامه، لنرفع عيوننا إلى فوق، فنرى السلم السماوي قائماً بين السماء... وأرض المتاعب ـ ولقد كان هذا ما اكتشفته حقاً . . . لقد لمست درجات السلم السماوي في تلك الوجوه البضة الضاحكة، والقلوب المؤمنة المستسلمة وهي في أحلك ساعات الليالي.

ولكن هل انتهت المعركة مع عدم الايمان ؟ أقول لكم كلا . لقد ثار شيطان الشك في قلبي وأرسل يستدعي شياطين المنطق والفلسفة والجدال، ثم قال معترضاً «لقد نظرت الى المشكلة من جانب واحد، جانب الانسان. ولقد استندت الى حالتين اثنتين تقاسيان المرض الواحد، ورأيتهما تقابلان الموت بشجاعة وبطولة. هذا من جانبيهما. ولكن ماذا تقول عن الجانب الآخر . الجانب الذي أصدر حكمه بالاعدام على هاتين الحالتين ؟ تصور ملكا أرضياً يمسك بطفلة في الخامسة من شعر رأسها. وفي هدوء يخترط سيفه ويفصل الرأس البريء عن الجسد. ماذا تقول عنه ؟ هل يمكن أن يكون الإله الذي تعبده إلهاً محباً صالحاً، ويتخذ من رعيته وأبنائه هذا الموقف ؟ بل هل تعتقد بأن هناك إلهاً على الاطلاق ؟ . . .

وفكرت في هذه الآراء كثيراً . ولكنني سرعان ما اكتشفت

سطحية تفكيرى . فما هو الموت ؟ أليس هو الحجاب الرقيق الذى يفصل بين حياتين ؟ ولماذا نعلق كثيراً من الأهمية على الحياة الدنيا؟ أليس لأننا ننظر إليها بعيون المادة ؟ لقد وضع البعض آمالهم وأمانيهم وأحلامهم كلها هنا. ذلك لأنهم من تراب وآمالهم فى التراب . أما نحن أبناء الروح أبناء المجد ـ ابناء الخلود . . . أبناء الحياة الأمجد . فما احرانا ان نردد مع الرسول هذا القول الكريم «ان كان لنا فقط فى هذه الحياة رجاء . . . فنحن أشقى جميع الناس . . .»

لقد ماتت هاتان الصبيتان . ولكن هل ماتتا حقاً ؟

أين هما الآن ؟ أليستا فى حياة أمجد وأفضل ؟ حياة هبت عليهما أنفاسها الحلوة فأعانتهما على اجتياز الطريق بسلام ؟ وألم تخلد ذكراهما فى قلوب وأفكار من أحاطوا بهما ؟ لقد تحملت هاتان المريضتان الآلام المبرحة . ولكن هل كان هذا كله عبثاً بلا طائل ؟ ألم تعينا بمثالها وصبرها واحتمالها كل من كان فى محنة مماثلة؟ ألم تقدما رسالة حية صامتة لكل متألم وكل مريض ؟

زد على ذلك، هل قياس الحياة بطولها أو بعرضها ؟ أليست الحياة رسالة نتقدم بها الى اخوتنا فى الانسانية ؟ وألا يحدث فى غالب الأحيان أن يكون الانسان حياً نشيطاً ملتهباً غيوراً، فيقطع رحلة الحياة فى سنوات قصار، ويقوم برسالته فى أعوام قلائل اكثر من شيخ امتد به العمر تجاوز المائة ؟

ومالنا لا نتخذ لذلك مثالا نؤمن به كل الايمان، وهو شخص ربنا يسوع المسيح . كم كانت ايام حياته على الأرض ؟ ألم يفارق عالمنا فى عنفوان قوته وأجمل سنى حياته وشبابه ؟ وكم سنة تقدم فيها بخدمته ورسالته الى العالم ؟ هل تجاوزت الخدمة سنوات ثلاثاً ؟ ومع ذلك لقد طبع العالم أجمع بطابعه الذى لايمحى . وأحدث ثورة فى تاريخ العقيدة والمجتمع ، لم يستطع أى مصلح فى الوجود أن يقوم بها ؟ وكم قاسى فى ميتته الشنيعة ؟ ولـكننى اذ أعود إلى الوحى أجد القول « وفى الموضع حيث صلبوه كان بستان » . لاحظ إلتقاء النقيضين : الصليب والدماء والموت، مع البستان والثمار والورود . ان فى هذا رمزاً عجيباً لما سيلده الموت،والصليب من ورود الحياة وهو رمز لما يقدمه الدم الـكريم من ثمار المصالحة بين الانسان والله .

بل أنك ستلمس هذه الثمار الشهية دانية القطوف فى اللحظات الأخيرة التى قضاها ابن الله على صليب العار . اللص التائب يصبح أول من تطأ قدماه أرض الفردوس البللورية مع المخلص الحبيب . والأم الثكلى المحطمة القلب يدبر لها من يكفلها بقية العمر . وفى صليبه وموته يتقدم بثمار المصالحة والبر والرجاء والعناية المباركة . حقاً لقد كان فى الموضع بستان حيث صلبوه . . .

والآن هنا أرى أمامى فى عنابر المستشفى جلجثة جديدة . ولـكننى

لا أراها مقفرة دامية كئيبة ، كما ظهرت لى فى الماضى . لقد بدا لى « ان فى الموضع بستاناً» . وها أرى أمامى البستانى السماوى «يرعى بين السوسن» يراقب زهوره النابضة بالحياة . . . يسقيها بنعمته . . . يرعاها بعنايته . . . يتفقدها فى حنانه . . .

وحينما يرى ان زهرة منها تستحق أن تنقل إلى أرض الأمجاد يقتلعها من جذورها ، ويحتضنها إلى قلبه ، ويصعد بها ليزرعها فى جنات الخلد.

حقاً ما أسمى محبته — حتى فى دار الألم ووادى البكاء . وما أيسر أن نجد يسوع الحبيب ، ونلمسه بأيدينا ، ونراه بأعيننا ، هنا فى متحف القلوب الكسيرة . . . هل حقاً قلت فى الماضى انه لا يوجد إله ؟ إنى أقر الآن وأعترف بما ردده المرنم فى القديم :

« قال الجاهل فى قلبه ليس إله »

الفصل الثالث

نافذة نحو الغروب

وإذ أرى هذه الشعاعة الغاربة
تستقر على الصليب ،
أية أسرار يعلنها أصبعك الناري ؟
« طومسون »

من الأوقات المثيرة لنفسي ساعة الصباح ، حينما أفتح درج مكتبي لأجد رسائل البريد . وأتناول رسالة بعد الأخرى لأفض محتوياتها وأقرأ ما بها من كتابات — فقد تكون هناك سطور رقيقة تحمل الرجاء والتشجيع والعرفان بالجميل . . . وقد تنطوي الرسالة على تحويل بمبلغ من المال لمشروع من المشاريع الهامة بالمستشفى . وقد يكون هناك تعهد من ثرى بمنحة مالية دورية مدى الحياة أو بجزء من ميراث بعد الوفاة . وقد يكون هناك سؤال لمشكلة هامة تتوقف عليها حياة انسان. ان جميع الناس يكتبون في شتى المواضيع .

وفي يوم من الأيام حمل إلى ساعي البريد رسالة من سيدة كتبتها

بأصابع مرتعدة. قالت فيها انها فى منتصف العقد الخامس من العمر، وانها طريحة الفراش منذ شهور، وان زوجها وابنيها يسهرون عليها للعناية بها ويكتمون عنها أنباء مرضها الخطير . وتستطرد المريضة المسكينة قائلة :

« بالأمس فقط سمعت الطبيب يتحادث معهم فى الحجرة المجاورة ، وعرفت أن لا أمل لى فى الشفاء ، ولم أجعل من هم حولى يدركون أننى عرفت كل شيء . ولكننى أشعر حينما يدخل أحدهم الغرفة ، اننى أكاد أنهار. سيدى اننى لا أملك الشجاعة الكافية. وفكر الموت يرعبنى » .

وتختتم السيدة خطابها قائلة . . .

«انك تكتب بقلب رقيق عن مشاكل الحياة. فهل لديك شعاعة من النور تضيء بها طريقى المدلهم ؟ »

وطيلة اليوم دار تفكيرى حول هذا الخطاب، وحول الرد الذى يجب أن أتقدم به لتعزية هذه المريضة فى أيامها الأخيرة. وأخيراً تذكرت مقالا كتبه أحد الصحفيين وهو فى أيامه الأخيرة . وكنت احتفظ به فى دفتر قصاصاتى . كان عنوان المقال «قبيل الغروب . . .» . وكان ذلك الصحفى المريض يقاسى من مرض خطير مؤلم . وفى غمرة آلامه كتب هذا المقال ولم يبق له فى الحياة سوى أيام قلائل. ومع ذلك فقد كان يفيض بالتعزية والتشجيع والروح المتفائلة . انه يتحدث بشجاعة وإيمان ، بل أكاد أقول بفرح وسعادة أمام من يلقبونه بملك الأهوال . . .

يقول الكاتب فى مقاله:

«ترى ما الذى نخشاه من الموت : لماذا لا نجابهه بشجاعة وهدوء حسبما تسمح لنا آلامنا !» . وذكر بعد ذلك حديثاً دار بينه وبين زميلين له عن هذا الأمر، بين زميلين انتقلا الى العالم الآخر. قال الكاتب «لقد كنا نتطلع عبر الحجاب إلى الآفاق الغامضة المجهولة . ولقد سبقانى الى هنالك وها أنا على أهبة الرحيل قبل الاثنين القادم» . ولقد حدث هذا بالفعل والتقى ذلك الرجل الكبير القلب بملك الأهوال وابتسامة الثقة على شفتيه.

ولقد حدث تغيير كثير فى نظرتنا لمشاكل الحياة فى الآونة الأخيرة، وربما كان ذلك بسبب ماحدث فى أعقاب الحربين العالميتين... لقد بدا غريباً وشاذاً ومقبضاً للنفس ان يتحدث الانسان عما وراء الموت. واتخذت نهاية الحياة مظهراً جديداً ومعنى خاصاً بالنسبة للملايين التى أتت لهم فى عنفوان القوة والشباب. وبدا الكثيرون يتساءلون . ترى ماذا حدث لهم وهل هم ـ كما قال سقراط قديماً ـ قد إلتقوا بالعدم ام انتقلوا الى عالم جديد ؟ وبمرور السنوات أصبحت هذه الأفكار وباء عاماً طغى على عقول المجتمع . ويشهد بذلك الناشرون وباعة الكتب . فلقد أعيد طبع كتاب عنوانه « انجيل ما بعد الحياة » ثمانى وعشرين مرة. وهذا مثل واحد من أمثلة متعددة. بل أن المستمعين الى أجهزة الاذاعة كانوا ينتظرون فى لهفة بالغة سلسلة الأحاديث الاذاعية التى يتقدم بها راعى كنيسة سان بول عن الخلود . ومن مدة ليست ببعيدة تقدمت احدى الجرائد السيارة بمناظرة

كان لها أثرها البالغ فى نفوس القراء . وكان موضوعها « أين مقام الموتى» . هذه الأمور كلها ترينا مدى اتجاه الفكر الجماعى فى تلك الآونة . يقول الصحفى اللندنى « ترى ما الذى نخشاه من الموت ؟ ما الذى نخشاه حقاً ؟ » . ولقد أتيح لى فى أثناء عملى بالمستشفى أن ألتقى بحالات كثيرة فى ساعة الغروب. ولم أر منها حالة واحدة تخشى الموت أو تتراجع أمامه.

كنت أتحدث منذ فترة مضت مع انسان قارب الموت، أو مر فى مرحلة الخطر القاسى، ولكن الحياة عادت إليه بعد أن يئس منه الأطباء. سألته ماذا كان إحساسه فى تلك اللحظات وأجابنى: «لقد تيقنت بالفعل ان النهاية تقترب منى، ولكننى لم أشعر بالجزع أو الخوف. كل ما أحسست به نوع من الشعور الغريب يدفعنى إلى ترقب ماعساه يحدث لى — لقد أحسست بأننى أعبر قنطرة تفصل بين عالمين . وكان كل همى أن أعرف ماذا يحتويه العالم الآخر. كان كل شىء طبيعياً للغاية» .

ويروى الدكتور جويت اختباراً مماثلا حدث له حينما أشرف على الموت فى حادث وقع له، قال: «ان شعورى فى ذلك الحين لم يعتوره أى اضطراب أو قلق . بل على النقيض من ذلك ، لقد كنت مسروراً فى توقعى لما سيحدث» .وهذا هو عين إحساس الكثيرين. وانى اذكر مريضاً احضروه للمستشفى فى حالة خطرة. كان شاباً فى السادسة والعشرين. ولما زادت حاله سوءاً وخشينا ان يؤثر وجوده على نفسية المرضى الباقين فى العنبر، اضطررنا الى نقله الى غرفة منفصلة. وحاول احد الأطباء ان يفهمه السبب فى ذلك

وهو أن أيامه باتت معدودة .

فى بداية الأمر بدت عليه علائم الثورة والاضطراب. فها هو الآن وهو على عتبة الحياة المزدهرة يقتلع منها اقتلاعاً. ولكن نفسيته بدأت تهدأ بعد ذلك . وحينما رأيته للمرة الثانية كان هناك بريق جديد فى عينيه ، نغمة جديدة فى نبرات صوته . ولم يضيع الوقت فى الحديث عن هذا الأمر أو ذاك ، ولكنه بدأ يتحدث عن سر الحياة ومعنى الموت ــ وكان هذا هو موضوعه الذى شغل فكره وقلبه . وعلى منضدة صغيرة بجواره شاهدت ستة مجلدات ، وكلها تدور حول الخلود .

وقبيل انتقاله بساعة واحدة ضغط زر الجرس ليستدعى المرضة . وهمس لها بأنفاس لاهثة : « ان المكان مظلم للغاية » . ولما أجابته بأن الوقت ساعة الظهيرة . أجاب « ولكننى لا أرى شيئاً . أرجوك أن تنيرى المصباح » . . . وأدارت الممرضة مفتاح النور ولكنه ظل يشكو من الظلام القاتم. وظلت الممرضة بجواره والدقائق تمر بطيئة مملة الى أن جاءت اللحظات الفاصلة حينما أشرق وجه المحتضر بنور سماوى وبأنفاس لاهثة هتف فى سرور « انى أستطيع أن ارى الآن ، انه عجيب . . . جميل . . . رائع . . . » . هل كان هذا خيالا داعب مقلتيه فى لحظاته الأخيرة؟ لا أعتقد ذلك ، بل انى أوقن أن لمحة من لمحات العالم الآخر قد أشرقت أمام عينيه وهو يعبر الوادى المظلم المدلهم . وتذكرت فى تلك اللحظة الآية القائلة «ويحدث انه فى وقت المساء يكون نور ».

أذكر انني خرجت فى نزهة خلوية مع صديق يسكن فى الأقاليم. وحينما عدت كنت مجهداً للغاية أجر قدماى جراً. ولضيق رأيت ان بيت ذلك الصديق يقع على ربوة مرتفعة، وأن علينا أن نرتقى مدارج تلك الربوة حتى نصل الى المنزل. وابتدأنا نصعد قليلا . . . قليلا . . . وحينما وصلنا الى القمة قلت لصديقى: « لقد خيل لى أن المرتقى عسير للغاية، ولكن يبدو أننا لم نتكلف جهداً كبيراً ».فقال صديقى بابتسامة: « ان الطريق هين ولو ان المرتقى يبعد وعراً مرتفعاً ».

وهكذا بالتمام فى مشكلة الموت.فحينما تقترب النهاية نكتشف لدهشتنا وفرحنا أن ملك الاهوال ليس ملكا ولا شيء، وأن ما كنا نخشاه ليس سوى خيال فى خيال . وما أجدرنا أن نتمثل بكلمة الحكمة القائلة : « وجه اهتمامك للحياة . ودع الموت يهتم بنفسه » . ان ما كنا نخشاه ليس سوى خيال فى خيال .

على أن هناك كثيرين لا يضطربون لما يلاقون فى نهاية الحياة بقدر ما يرهقهم طول الطريق . وانى أذكر منظراً رأيته منذ مدة ليست ببعيدة . فأمام أحد أبواب عنابر المستشفى رأيت جماعة من الرجال والسيدات. وقد اجتمعوا يتهامسون فيما بينهم ، وقد بدا عليهم الحزن والوجوم. وقال الواحد لزميله « آه لو عرفت بأننى سألتقى به ثانية » ، واتجهت بأنظارى الى المتحدث ، وكانت سيدة وقد خط الشيب شعرها وظهرت عليها أمارات الحزن والكآبة، وأدركت فيما بعد انها قد خرجت

على التو بعد أن أغمضت عيني شريك حياتها . لقد انقضى على زواجهما أربعون عاماً . وخلال فترة المرض الطويل التي سبقت هذه اللحظة الفاصلة، عرفا معنى الحياة السعيدة المشتركة التي قضياها معاً ، وتذكرت في ذلك الوقت كلمة قالها «البرت شفاليه » في احدى المسرحيات : « ينبغي أن نفترق . فهذه سنة الحياة» .

« آه لو عرفت بأنني سألتقي به ثانية » . إنها ليست صرخة الزوجة المسكينة التي فقدت شريك حياتها فحسب ، ولكنها صرخة الكثيرين ممن اجتازوا هذا الاختبار . لكم جابهني أولئك بالسؤال « وماذا تظن في ذلك كله ؟ »

والكتاب المقدس، وبالأخص العهد الجديد، لا يتركنا في حيرة من جهة هذا الأمر . فمن بين الحقائق العظمى التي نادى بها ربنا يسوع المسيح: « اننا بعد ختام وجودنا على الأرض لا نستمر أحياء فحسب ، بل نحيا كما نحن بشخصيتنا وكياننا وذواتنا . فالموت لن يمحو ذاتيتنا أو شخصيتنا . تأمل في القول الذي أجاب به السيد على الصدوقيين الذين يقولون بانه لا قيامة للأموات . . .

« أما قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلمه الله قائلا أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ــ ليس هو إله أموات بل إله أحياء . . . »

فحينما تكلم الله بهذه الكلمات، كان الآباء الثلاثة قد طواهم الموت منذ مئات سنين عديدة . ومع ذلك فان الله يقول « أنا » يهوه الكائن الآن وليس فيما مضى فحسب ، إله أحياء الآن ، وليسوا فقط حينما كانوا أحياء بالجسد .

والبوذية على سبيل المثال تعلمنا بأن الانسان بعد الموت يفنى كيانه وذاتيته ووجوده في الكائن الأعلى ، كما تفنى الذرة في الكل أو الموجة في البحر الخضم . ولكن ما قيمة ذلك بالنسبة لى ؟ إن كنت سأنقطع بعد الموت عن الذاتية والكيان والاحساس والشعور فما قيمة الوجود ؟ ان كانت الحياة الأخرى لا تقدم لنا سوى الفناء وعدم الوجود ، فنحن أشقى جميع الناس . «لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت».

ذهبت مرة لأعود شخصاً فقد عقله . وكان المنظر أقسى من أن يحتمله مخلوق بشرى .فالمسكين لم يعد يعرف أقاربه الذين حوله ، بل لم يعرف حتى نفسه . لقد كان يوماً ما إنساناً له كيانه وإحساسه وذاتيته ، أما الآن فماذا تبقى منه ؟ لا شيء على الاطلاق. لقد فقد كيانه حينما فقد إحساسه . قلت في نفسي . . . يا لها من حياة ؟ هل تراني قلت انها حياة ؟ انها ليست حياة على الاطلاق. انها ليست حتى مجرد وجود . لقد كان الأفضل له لو خمدت أنفاسه وانقطعت صلته بالدنيا . ان كان هناك فضل في تعاليم المسيحية وعقائدها ، فان أعظم ما تتقدم لنا به ، بعد عقيدة الخلاص ، عقيدة الخلود وعدم الفناء . . . قال السيد المسيح على الصليب

للص التائب «اليوم تكون معى فى الفردوس». لاحظ الكلمة «تـكون» أى أنه سوف يحتفظ بكيانه وبذاتيته ولن يفقد شخصيته. وحينما ظهر السيد بعد قيامته للتلاميذ كان يحتفظ بنفس الـكيان، حتى أن يوحنا الحبيب هتف قائلا : انه الرب. وفى المثل الذى تقدم به السيد عن الغنى والعازر، نرى لعازر من وراء الحجاب هو هو لعازر بعينه، الذى كان على الأرض. ونرى ابراهيم هو هو ابرهيم الذى يتطلع اليه الغنى من الهاوية فيراه ويعرفه. ان التأكيد بأننا سوف نحتفظ بمدار كنا « هناك » هو احدى الحقائق العظيمة التى تتقدم بها المسيحية للعـالم. واننا نشكر الله لذلك.

وتعود بى الذاكرة الآن الى اللحظات التى قضيتها بجوار سرير مريض عزيز على أكثر من نفسى فى لحظاته الأخيرة... كان شحوب الموت بادياً عليه. ورأيته يغيب شيئاً فشيئاً فى غيبوبته الهادئة. كان وجهه يبدوا عليه السلام. ولم تبدو فى عضلة منه علامات الصراع النفسى، أو القلق أو الاضطراب وهو مغمض عينيه فى سكون. وخفتت أنفاسه قليلا ثم سكنت إلى الأبد. ولـكن بدا أمامى، وكأنما لم يزل حياً يتحدث إلى بحديثه الحلو ومنطقه العذب الرقيق. ولقد كان وجهه الصامت المعبر يتحدث إلى بأصدق لسان وأجلى بيان. لقد كان يتحدث عن حقيقة الخلود... الخلود السعيد...

قال سقراط لتلاميذه، وهو على وشك أن يتجرع كأس السم : « ان

« نلتقى باورفيوس وماسيوس ؟ ان نرى هيسيود وهوميروس ؟ كم يدفع الواحد منكم لينال تلك الخطوة ؟ انى على استعداد بأن أقاسى بكل سرور مائة ميتة فى سبيل هذا المجد » .

واننا نضيف على قول سقراط بأننا سوف نلتقى بالألوف من أبطال الحق منذ بداية التاريخ، بالقديسين والحكماء وبالعلماء ـ باحبائنا وبأقاربنا وبأصدقائنا . وفوق الكل سنتمتع بلقاء حبيبنا الأول والأعظم يسوع وبعشرته إلى أبد الآباد .

هذا، وليس أقل من هذا، هو رجاؤنا . وعلى هذا الأساس نقيم صرح إيماننا وسعادتنا . على هذا الرجاء نحيا . وعلى هذا الرجاء نموت . . .

ولعل القارىء لم يمل تكرارى لتلك الأمثلة المتعددة . فان لدى الكثير فيها. والمريض الذى أريد أن أوجه انتباه قرائى إليه هذه المرة ، قضى أسابيع عدة على فراش مرضه الخطير الأخير وأدرك أنه لا رجاء له فى الشفاء وأن أيامه باتت معدودة . على أن هذه الحقيقة لم تسبب له الحزن أو الارتباك . فقد رأى فيها باب النجاة من أوجاعه ومتاعبه ، بل رأى فيها أكثر من ذلك السبيل الوحيد الذى يلتقى فيه بزوجته التى افترق عنها منذ عام أو يزيد . قال لى مرة « ثمان وثلاثين عاماً قضيناها معاً كانت فيها قطعة حية من كيانى. ولقد مضت . مضت وتركتنى فى برية الحياة . . . وأنا أريد أن ألحق بها هناك » .

وفى يوم من الأيام كنت أعوده فلم أجد الابتسامة على محيـاه . . ووجدت مكانها تقطيباً وتجهماً . وحانت منى إلتفاتة إلى جواره. فرأيت إحدى الجرائد اليومية . وبيد مرتعدة أمسك الجريدة وأشار إلى عنوان بالخط العريض . وقرأت فى ضيق هذه الكلمات « العلماء يؤكدون أن الموت هو نهاية كل شىء » . . . والتفت المريض إلى بوجه شاحب . وقال « هل هذا حقاً صحيح ؟ أو تصدقه ؟ »

وقرأت المقال . وكان تقريراً من اثنين من كبار العلماء ختم الواحد حديثه بالقول «إن روح الإنسان لاتستمر أكثر مما يستمر لهيب الشمعة المحترق». وقال الآخر «ان الموت نهاية كل حى». وحين غادرت المكان كانت غصة فى حلقى . أحسست بأن هذين العالمين قد ارتكبا أكبر جرم يمكن أن يرتكبه مخلوق . لقد حطما قلب إنسان مريض وهو فى لحظاته الأخيرة. وطيلة اليوم قضيت الوقت أفكر فى الوسيلة التى أعالج بها هذا الموقف.

وأخيراً تذكرت أن ذلك المريض يمتلىء إعجاباً بعالم آخر على قيد الحياة يعرف باسم «لورد جراى ». فأرسلت إليه خطاباً وحدثته عن ذلك المريض ، وعما أحدثه المقال الذى قرأه فى تلك الجريدة من أثر فى نفسيته، ورجوته أن يسرع بالرد على برجوع البريد ــ وجاء الجواب . قال فيه « لقد اجتزت يوماً اختباراً قربنى من نهاية الحياة . وانى اكتب عن يقين بأنه لا شىء عندى أيسر من إجتياز الموت ، لأنى على يقين بأن هناك حياة أعظم وأسمى من هذه الحياة المادية التى نحياها . وانى أؤكد

بأن كل إنسان منا يفكر بعدم وجود تلك الحياة الأخرى ، مهما سمت درجة ثقافته وتعليمه، ينبغى ان نرثى له، كانسان ضيق الأفق والتفكير» .

وحملت خطاب لورد جراى الى الرجل المريض . ووضعته إلى جنب مقال ذينك العالمين . وشاهدت علامات الإرتياح ترتسم على وجهه ، ورأيت بريق الثقة يعود إلى عينيه والسلام العميق يملأ أعماقه .

وبعد أيام أتت النهاية ، ولكنها كانت نهاية سعيدة هادئة ظهرت فيها روح الثقة والايمان . حقاً ما أصدق كلمات السيد المسيح حين قال «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض ، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال » .

قال صديق لى من المغرمين بلعبة الجولف لمساعده الشاب « لقد رأيتك من قبل ولكن أين...؟» وأجاب الشاب «لست أدرى ياسيدى» .

— فى أى مدرسة تلقيت تعليمك ؟

— فى مدرسة سان استفان .

— ولكن أنا كنت فى نفس المدرسة . لعلى أعرف والدك . ما اسمك ؟

— بللى يا سيدى .

— تذكرت . . . انى أعرف والدك . انك تشبهه الى حد كبير . وإننى لم أره منذ أن تركت المدرسة .

وشيئاً فشيئاً عادت الذكريات . . . ذكريات طمرتها رمال خمسة وعشرين عاماً خلت . . . ذكريات بعضها حلو وبعضها مر . . . وكلها عزيزة على النفس .

ولكنى لم أشاهده منذ ذلك الحين ، أين هو الآن ؟ لعل الفرصة ستتاح لى لرؤيته مرة أخرى .

وأطرق الشاب قليلا . وفاضت دمعة من عينيه . وبعد برهة تمالك أعصابه وقال :

— بلا شك سوف تلتقى به ثانية يا سيدى . انه هناك فى السماء .

قالت السيدة الأرملة «آه لو أعرف بأنى سألتقى به ثانية ؟» ويجيبها ذلك الشاب « بلا شك سوف تلتقين به ثانية » . نعم . . . انى اؤمن بهذا إيمانى بأن الشمس ستشرق فى صباح اليوم التالى . . انى لا أعرف ان كانت حياتى الأرضية ستستمر إلى الغد أم لا . . . ولكننى أعرف وأوقن بأن حياتى الخالدة لن تتوقف . وحينما تصل أيامى الأرضية إلى ختامها سوف أمضى ، كما قال أحد القديسين . . . كطفل متعب حزين الى صدر أبيه ليجد الراحة والعزاء والتشجيع ، فيحمله أبوه

ويضمه إلى صدره ويغمره بقبلات العطف والحنان . . . نعم سوف أسند رأسى على صدره. وسوف ينظر إلى نظرة حلوة، ويدرك ما يجول بخاطرى . وبعد برهة سوف أغمض عينى فى سلام . وحينما أفتحهما سوف أجد نفسى فى أرض جديدة وسماء جديدة . وسوف أتحقق معنى قول المرنم « اشبع اذا استيقظت بشبهك » .

الفصل الرابع

كل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين

«لقد أشرق أمامى نور من السماء وسأتبعه» .

فى دوائر الحياة العلمية نتجه إلى البعض ممن نسميهم اخصائيين فى الشئون التى نريدها . ومع ذلك فان عملاق الجيل الواحد قد يسدل عليه ستار النسيان فى الجيل التالى . وفى دوائر الدين أيضاً يوجد اخصائيون كثيرون لكل دين من الأديان . ولكن بالنسبة للمسيحى لا اخصائى سوى واحد : ربنا يسوع المسيح . اليه نتجه فى أية مشكلة تعرض لنا وعنده نجد الحل الكافى . . .

خذ مثلا موضوع الصلاة ؟ يقول السيد فى بشارة متى (٧ : ٧) « اسألوا تعطوا. أطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم ، لأن كل من يسأل يأخذ . ومن يطلب يجد . ومن يقرع يفتح له » .

هنا نجد أسمى وأعظم الحقائق التى تؤيدها اختبارات الأجيال الطويلة . إننا قد نخطىء الكثيرين من العلماء ممن نعتبرهم جبابرة

المفكرين – فى ميادينهم الخاصة . ولكن الحق الذى نادى به السيد المسيح عن الصلاة ، قد جابهته عواصف السنين فى مختلف العصور ، فوجدته قوياً راسخاً على صخر الدهور – ان طلبتم شيئاً باسمى . فانى أفعله . . . شيئاً ؟ أى شىء ؟ هل هذا صحيح ؟ وهل تستطيع أن نعتمد عليه فى أزمات الحياة ؟

تعود الذاكرة بى الآن إلى قصة يرويها رجل معروف فى اسكتلندا كان يحتل فى وقت من الأوقات كرسى البرلمان عن إحدى الدوائر هناك . وإنى أثق بأن كلامة حق . قال :

« أعرف قريبة لى كانت مصابة بورم داخلى خبيث استمر يسبب لها الأم عـــدة سنوات . وعرضت نفسها على عدد من الأطباء . وأخيراً قرروا أن اجراء عملية جراحية قد يكون نافعاً لها . وحددوا موعداً لذلك بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ . . .

والآن دعونا نقدم الكلمات عينها التى قالتها السيدة . . . قالت « فى الليلة التى كان محدداً ان تتم العملية فى اليوم التالى ، تقدمت بصلاتى إلى الله . صليت والحق يقال أن يسدد الرب أصابع الجراح حتى تتم العملية بنجاح لأعود لخدمة أطفالى . وإذا بصوت يهمس لى فى أعماقى : أليس لديك إيمان أكثر من هذا؟ فأجبت: نعم يارب اننى اعرف انك لست بحاجة إلى ما يصنع الجراح ، وإذا كانت هذه إرادتك فإنك تستطيع أن

تعمل بالواسطة وبغير الواسطة . وشعرت فى نفسى بأن روح الله يدفعنى إلى أن أطلب الشفاء من الله رأساً بغير واسطة إنسان . فتقدمت بطلبى له وأخيراً أحسست بسلام عميق يملأ قلبى . وذهبت إلى الفراش تغمرنى ثقة الأطفال. وفى الصباح ، حينما استيقظت كان الورم الخبيث قد زال .

ذهبت السيدة فى اليوم التالى حسب الميعاد للطبيب الجراح . وبعد أن فحصها فحصاً دقيقاً ، أبدى دهشته الفائقة لأن الورم قد زال بالكلية بين ليلة وضحاها . وأنه لا حاجة بها لإجراء العملية .

ويضيف من يروى القصة قائلا : « لقد مضى على هذه الحادثة عشر سنوات كاملة . وما تزال قريبتى تتمتع بصحتها كاملة . ولم يعاودها أى مظهر من مظاهر الداء القديم منذ ذلك الحين حتى الآن . . .

ثم انى اؤمن بصدق هذا الصديق لأننى لمست بفضل مهنتى كطبيب كثيراً من الحالات المشابهة . واذكر الآن واحدة منها . . .

جاء إلى رجل فى العقد الرابع من عمره لاستشارتى. ولقد كان مديراً لمخازن تجارية كبرى فى غرب لندن . وأخبرنى بأنه يشكو من ألم فى جنبه وأن طبيبه الخاص طلب منه أن يعرض نفسه على اخصائيين آخرين . فاستشار أحدهم وأثبت الفحص بأشعة اكس وجود ورم غير عادى يحتاج إلى اجراء عملية سريعة . كما أخبره القائمون بالأمر بأنهم سيقومون

بإجراء العملية حالما يخلى سرير بالمستشفى. وفى اليوم التالى زارتنى زوجته وأخبرتنى انها قلقة على زوجها ، وأنها تريد أن تعرف ان كانت العملية ضرورية أم لا لزوم لها . فلما أخبرتها بأن العملية لازمة جداً وطمأنتها بأن الجراح الذى سيقوم باجرائها طبيب موثوق به ، لم تبد ارتياحها ، وقالت اننى أحس بشعور داخلى بأنه اذا أجريت هذه العملية فلن يكتب لزوجها النجاة . وبدون ان تنبس ببنت شفة غادرت المستشفى .

وأخيراً اتى اليوم الذى تقرر فيه اجراء العملية للمريض. وجاءتنى مبكرة قبل ميعادها بساعتين كاملتين ، وقالت ان شيئاً غريباً قد حدث له . فلقد إختفى الورم . اختفى ولم يترك اثراً . وقمت مع زملائى بالمستشفى بفحصه ووجدت أنه صادق فى حديثه . وأيد الفحص بالأشعة زوال الورم بالكلية وأنه لم يعد هناك أى أثر . ولما عرف المريض ذلك طلب منى أن أسمح له بالاتصال تليفونياً بزوجته . وسمعت صوته يهتف فى تهدج قائلا « لقد استجاب الله صلواتك يا عزيزتى » .

ولما انتهت المكالمة سألته أن يوضح لى اكثر ما حدث فقال : « فى الليلة السابقة ذهبت الى فراشى فى العاشرة مساء واستيقظت فى الفجر لأجد زوجتى ، ليست نائمة فى سريرها . . وأسرعت نازلا الى الطابق السفلى فوجدتها فى حجرة الضيوف راكعة تصلى . وهذا كل ما فى الأمر » . ثم شد على يدى بحرارة وغادر المكان وعلى فمه ابتسامة .

وليست هذه الحالة هى الوحيدة. انما نستطيع ان نضيف إليها حالات

وحالات . لعل القارىء لا يمل الحديث اذا ذكرت واحدة أخرى . . .

فى أحدى المصحات كانت ترقد سيدة على فراش المرض تنتظر قرار الطبيب الاخصائى . وعلى هذا القرار تتوقف حياتها أو موتها . . . وهى ما كانت تعرف ذلك . وبجوار السرير كان يجلس شاب هو زوج هذه السيدة المريضة الشابة . لقد تزوجا منذ عامين اثنين وكانت حياتهما فى غاية السعادة التامة والهناء . ولـكن يبدو أن القدر سوف يتدخل لإنهاء هذه العلاقة . فلقد بدا على الفتاة الذبول منذ الشهور . وتناقص وزنها بصورة مخيفة حتى أصبحت جلداً على العظم . وعرف الزوج قرار الأطباء وتأيدت مخاوفه فى اليوم التالى حينما أثبت فحص الأشعة وجود ورم خبيث يلزم لاستئصاله عملية خطيرة خلال ساعات سوف يتقرر موت هذه السيدة أو حياتها . . .

وفى صباح اليوم التالى عاد الزوج إلى المستشفى . وقد بدا عليه الاضطراب وأسرع صاعداً إلى غرفة العمليات . فقد كانت تلك هى الساعة التى تقرر فيها إجراء العملية الجراحية ، ولـكنه لدهشته واضطرابه العظيم شاهد زوجته تحملها المرضة على النقالة خارج غرفة العمليات وهى ماتزال تحت تأثير المخدر . ووجهها يبدو عليه شحوب الموتى وأنفاسها تتردد فى غير انتظام . وقال له الجراح بشىء من الألم انه بعد ان نامت بتأثير المخدر اكتشف فى اللحظة الاخيرة ان قلبها اضعف من أن يتحمل إجراء

العملية الجراحية . ولذلك قرروا عدم اجراء العملية لها وتركها كما هى .
وسأل الزوج فى إضطراب بالغ « وكم تعتقد أنها ستستمر فى الحياة؟» وأبدى الطبيب تردده ولم يرد أن يصارح الزوج بالحقيقة . ولما ألح عليه كثيراً اجابه « اعتقد أنها لن تعيش أكثر من ستة شهور » وغامت الدنيا فى عينى الزوج وكاد ينهار فى مكانه . . . . ستة شهور لا غير ؟ ستة شهور سنى حياة هذه الزهرة ، ما لم تحدث معجزة .

وبعد ذلك بمدة طويلة جاء الزوج إلى المستشفى لمقابلتى . وظننت أنه قد أتى ليخبرنى بوفاة زوجته . وتحيرت فى نفسى بما أجيب عليه . وماذا أقول لتعزيته . فما أتفه كلمات الإنسان فى مثل هذه المناسبات . ولكننى حينما رأيته تبخر من أمام عينى كل الضباب المظلم ـ فقد كان وجهه يشع بالبشر والسعادة . لقد مضى عامان كاملان عليه وزوجته ماتزال فى كمال الصحة والعافية منذ أن تركت المستشفى . ولقد رآها نفس الجراح الذى حكم عليها بالموت بعد شهور معدودات . وقال لزوجها : انه يريد أن يحدد يوما يقوم فيه بفحصها مع زملائه . وأكد الرجل لى أيضاً أن وزنها زاد زيادة ملحوظة . ولما سألته إلى أى شىء يعزو شفاءها أجابنى بأنه فى نفس اليوم الذى غادرت فيه المستشفى قالت له حين أفاقت من تأثير البنج (المخدر) «لا تخش شىء . أنى واثقة بأن الله سيمد يده ويشفينى» . وظن الزوج أن قولها لا يزيد عن كونه خيالات مهرفة . ولكن الأيام ايدت أيمانها .

وهل هناك تفسير لهذه المعجزة ونظائرها ؟ ان بعض العلماء يتحدثون عن الايحاء ومدى تأثيره فى الوظائف العضوية . ويتحدث بعض الاطباء عن إرادة الحياة وأثرها فى إطالة حيـاة المريض . ولكن من يقـول ان للايحاء أثره فى إبادة جراثيم الأمراض والانتصار عليها بعد أن نفثت سمومها القتالة فى الجسم ؟ ليس أمامنا سوى حل واحد ، هو الحل الذى جاء على لسان الزوج حينما سألته عن رأيه فأجاب بابتسامة الثقة :

«ليس أمامى تفسير لهذه المعجزة إلا ماورد فى شعار كولردج : «إن من يحب جيداً يعرف كيف يصلى جيداً» .

وعند ذلك عدت لأسأله « هل تؤمن بالصلاة ؟ »

فأجابنى « أومن بها ؟ لقد أختبرتها بالفعل » . . .

ولم يكن هناك مجال لحديث أكثر . لقد أقتنع هذا الرجل بفاعلية الصلاة وأثرها . أمتحن وعد يسوع الأمين الصادق فوجده صادقاً للنهاية .

إذ كر حينما كنت طفلاً أننى كنت أحب الترنيمة التى تقول :

سيدى فى مجده .

يصغى لى فى حبه .

حين أسجد لديه .

رافعاً قلبى إليه .

وعلى ذكر الطفولة أريد أن أضيف قصتين عن صلوات الأطفال . فالسيد الذى كان يرحب بالأطفال ويحتضنهم ويباركهم لن يرفض صلواتهم البريئة .

ففى يوم من الأيام كنت أمر بعنبر الأطفال ، فرأيت صبية تجلس بجوار طفل مريض يرقد فى سريره الصغير . وكان فى مظهرها شيء أثار إنتباهى . فقد كان شعرها منكوشاً غير مرتب وملابسها غير منتظمة، ولكن عينيها الزرقاويين كالبحر العميق الصافى تشعان بنور علوى. ولبثت أراقبها لدقائق .

كانت تنظر بشغف بالغ إلى الطفل المريض الراقد فى سريره . وحينما التقت عيناها رأيت فيها لمحات من القلق والحزن . وقالت ببراءة الأطفال انه أخى الصغير ، انه لم يبلغ الخامسة . وحانت منى التفاتة إلى بطاقة التشخيص المعلقة على السرير فقرأت فيها هذه الكلمات المروعة «التهاب سحائى» . ولعل الطفلة لمحت بعض مظاهر القلق ترتسم على وجهى فقالت : « إنى أعرف أنها حالة مميتة ، ولكنى أثق أنه سينجو من الخطر ، لانى أحبه». وأستفسرت عن هذه الفتاة فقيل لى انها الاخت الكبرى لهذا الطفل وانهم يلقبونها بالملاك الصغير . لقد ماتت أمها من ثلاث سنوات وتركته فى رعايتها مع خمسة أطفال آخرين. وطيلة تلك المدة حملت تلك الصبية على أكتافها حمل رعايتهم والعناية بهم. وعجبت فى نفسى .. أما كان الأجدر بها أن تفرح لأن حملا من

الأعمال الخمسة سيرفع عنها ؟

وفى اليوم التالى سألت بالتليفون عن الطفل. فقيل لى إن حالته زادت سوءاً وانه قضى ليلة مضطربة . وفى زيارتى بعد ذلك رأيت « الملاك الصغير » ما زال يحتل مكانه بجوار المريض : وهبت الصبية واقفة حينما لمحتنى . وقالت بلهفة حزينة « أرجوك ، أرجوك ـ لا تدعه يموت » . وطمأنتها بقدر المستطاع . وذكرتها بالكلمات التى نطقت بها بالامس. ولكننى كنت فى شك من أمرى . فقد وصل الطفل إلى الحالة التى تعجز عن مجابهتها مقدرة البشر . ولم يكن أمامنا نحن الأطباء إلا أن نقف مكتوفى الايدى وننتظر معجزة من السماء . نعم لم يعد لدينا ما نستطيع عمله . سامحونى هل قلت انه لم يبق شىء ؟ . . لقد بقى شىء عظيم . ومع أننا لم نقم نحن به، إلا أن الملاك الصغير أستطاع أن يقوم به . فحينما عدت بعد مدة إلى المكان وجدت الصبية جاثية أمام السرير تصلى . وهى تدفن رأسها فى الأغطية وأصابعها الصغيرة تعبث بحبات مسبحة فى نهايتها صليب . وانى أثق بأن تلك الصلاة الصغيرة الأمينة قد استطاعت أن تشق عنان السماء وتصل إلى قلب عرش الله .

وبعد نصف ساعة فقط كان الطفل ينام فى هدوء . وعملت الراحة معه ما لم يستطعه العلاج والأدوية . وفى الصباح فى اليوم التالى ، كانت حالة الطفل قد تحسنت . وزالت نظرات القلق من عينى الأخت وحلت محلها

ابتسامه الثقة والسلام . وأستطاع المريض بعد أيام قلائل أن يعود إلى حالته الطبيعية ويغادر المستشفى .

إنى أعرف أن كلامى هذا سوف يثير سخرية البعض من المتشككين ، وهزء البعض الآخر ممن لا يؤمنون بما فوق الطبيعة . وهم إذا صدقوا ما أقول يحاولون أن يكتشفوا تفسيرات طبيعية لهذه الحالات . ولكن لماذا نؤمن بحدوث المستحيل فى دوائر الحياة العادية ولا نؤمن به فى دائرة الدين ؟ ألم يحقق العلم الكثير من المعجزات فى هذه الأونة الاخيرة ؟ لو قام أجدادنا اليوم لحدثناهم عن الراديو ، والتليفزيون، والصواريخ الموجهة ،والأقمار الصناعية،أما كانو يعتبرون حديثنا خيالا فى خيال ؟ ولكن العلم قد حق هذه المعجزات . فلماذا ننكر حدوث المعجزة فى دائرة الروح ؟ أن مستحيل الأمس قد أصبح اليوم أمراً عاديا. فلماذا لا يكون للصلاة الواثقة أثرها فى ميدان الطب والعلاج ؟ ان الايمان قوة عظيمة تفتح الابواب المغلقة . وكل شىء مستطاع لدى المؤمن. أننى لا أقلل من قيمة الطب والعلاج . ولست من تلك الطائفة التى تحرم الدواء . ما زلت طبيباً اؤمن بمهنتى وبفنى . ولا زلت أثق بأن الله يستطيع أن يعمل بالوسائط البشرية كما يعمل بغيرها إذا لزم الأمر . وأتوقع أن يأتى سريعاً ذلك اليوم الذى يضع الطب يده فى يد الشفاء الروحى فى مؤازرة واخوة ، ويسير جنباً إلى جنب مع البشارة بالملكوت.

فهذه هى رسالة المسيح للعالم حين أرسل تلاميذه لينـــادوا بملكوت السموات ، ويشفوا كل ضعيف فى الشعب .

وقد استمرت هذه الرابطة فى الكنيسة الأولى قوية متماسكة لا تنفصم عراها لمدة طويلة . لقد كانت المستشفيات والمصحات فى البداية يسهر على خدمة نزلائها رجال الدين وتديرها الهيئات الدينية . بل أن بعضها ما تزال عالقة بها الأسماء الدينية التى أطلقت عليها . فهناك فى أنكاترا مستشفيات القديس مرقس ، والقديس لوقا ، والقديس برثلماوس ، وغيرهم . وما تزال هذه الروح فى ربوع مستشفياتنا إلى اليوم . وهناك من الأطباء المؤمنين من لا تمتد أيديهم إلى المريض إلا بعد أن ترتفع إلى الله فى الصلاة . وحينما دعى واحد من كبار الجراحين ليقوم بإجراء عملية خطيرة أمام جمع من زملائه وسأله واحد منهم « كيف يتسنى لك أن تقوم بعملك بهدوء وهذه العيون ترقبك » . فأجاب « إنى لا أعرف إلا ثلاثة فى هذا المكان » . فقيل له « ومن هم » فقال « الاثنان الاولان المريض وأنا . . . أما الثالث فهو الله » .

الفصل الخامس

بما انكم فعلتموه

« بما انكم فعلتموه باحد اخوتى الاصاغر ـ
فبى فعلتم » .

فى أيام الحرب اعتدنا أن نتبادل الحديث حول ما ادعوه بديانة الخنادق ، التى كانت تظهر فى صور متعددة من إرسال رسائل إلى هدايا إلى غير ذلك من روح المودة والتعاطف بين الجنود . ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر .فهذه الديانة كانت تظهر أيضاً فيما اسماه بولس فى رسالة من رسائله بثمار الروح أو أعمال المحبة التى تزيد روح المحبة والاستعداد للتضحية بالنفس ، ولو للموت .

قال واحد من الجنود « اننا نحب إخواننا لقلوبهم الرحبة ولنفوسهم الحية ولاستعدادهم ان يجابهوا الموت بشجاعة وأن يحملوا أحمال بعضهم بعضا . وهذه هى ديانة الخنادق » .

وهناك ديانة العنابر بالمستشفيات . تعال معى إلى غرفة الاستقبال . أو العيادة الخارجية بالمستشفى : هناك ترى طبيباً كبيراً يستقبل مرضاه . انه واحد من كبار الجراحين بمدينة لندن . انه يفحص كل مريض بدقة وهدوء . ولو عرفت كم من التضحية يتكلف فى هذا العمل لذهلت . فكل دقيقة من وقته الثمين تساوى ذهبا . ومع ذلك يضحى بثلاثة عصارى من كل أسبوع ليقوم بعلاج الفقراء . وهو لا يتقاضى مليما واحداً عن اتعابة وجميع مصاريفه الخاصة من أنتقال وخلافه يدفعها من جيبه الخاص . ومع أن الكثيرين يتحدثون عن جشع الأطباء ، إلا أن هذا الطبيب يقدم لنا مثلا من أمثلة أولئك الذين يتبعون سيدهم الذى « ما جاء ليخدم بل ليخدم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين ...... »

فى ليلة من الليالى كنت فى زيارة جراح كبير حينما وصلته برقية عاجلة من احد المستشفيات تدعوه لعمل جراحة عاجلة لمصاب فى حالة خطيرة نقل إليها بين الحياة والموت . كان الوقت قرب منتصف الليل . وكان الجو قارس البرودة ، والصقيع يتهاطل وترتطم قطعه الصغيرة بزجاج النافذة . ونظرت إليه فى اشفاق . فلقد أخبرنى منذ دقائق انه لم يسترح ولا دقيقة واحدة منذ أن بدأ عمله فى الساعة الثامنة صباحاً حتى تلك الساعة . وقام فى خلال ذلك الوقت بعمل ثمانى عميات جراحية . وانه قد عاد منذ قليل إلى المنزل وهو يحلم بالمدفأة والفراش الوثير .

ومع ذلك ـ هكذا أضاف ـ لم ينته يوم عملي بعد . ثم قام في هدوء وارتدى ثيابه ولبس فوقها المعطف ليقيه المطر ، وغادر البيت ليقدم معونة لفقير محتاج دون أن ينطق بكلمة واحدة من الشكوى .

وهناك أمثلة كثيرة نظير هذا الطبيب المضحي . ومع أن معظم هؤلاء لا يصلون في غالب الأحيان إلى الشهرة والثراء العريض ، إلا أنهم يكسرون قارورة الطيب التي في حوزتهم ، ومنها تفوح الرائحة التي تملأ الوسط الذي يعيشون فيه . ان وزنتهم الزكية التي قدمت اليهم ليتاجروا بها ويربحوا هي خدمة المرضى ، وتعزية المحزونين ، وجبر المكسورين . ويوما سوف يسمعون صوت الطبيب الأعظم وهو يهتف لهم قائلاً . «بما انكم فعلتمو، باحد أخوتي هؤلاء الاصاغر فبي فعلتم » .

وفي هذا الصدد خدمة الممرضات . اننا احياناً نأسف في انفسنا لانه قد مضى عهد فلورنس نايتنجال ، واليزابيث فراي . ولكن هذا ليس صحيحاً . فكل سيدة تنخرط في سلك التمريض تستطيع أن ترفعها إلى مرتبة هاتين البطلتين . فحياتها تفنى في اجواء المرض والانين والموت . تلك الاجواء التي تحطم النفس وتكسر القلب . وان كان البعض يعترضون بان التمريض مهنة ، وان التي تقوم بخدمتها في هذا المجال تنال عنها اجرها ، فاني أقول بان ذلك الاجر مهما كانت قيمته لا يوازي مطلقا مقدار التضحية التي تبذل . وهل يغيب عن أذهاننا أن هناك أعمالا

الخرى تستطيع أن تدر مبالغ أعظم وتضمن مقاما أسمى ؟ فما الذى يدفع المرأة إلى هذا العمل، إلى رعاية المريض طيلة النهار ، والسهر بجواره طيلة الليل ؟ أليست هى الرغبة فى تقديم الخدمة لمحتاج دون حساب للمشقة التى تتكلفها ؟ ان أصواتا كثيرة قد بدأت ترتفع فى الأونة الاخيرة عن طريق الاذاعة والتلفزيون والندوات الاجتماعية وعلى صفحات الجرائد مطالبة باعادة المرأة عن بعض الميادين التى بدأت تغزوها . ولكن ولا صوت واحد تجاسر بأن يطلب ابعاد المرأة عن المستشفيات . ولماذا ؟ ذلك لأن هناك مكانها ومجالها . وكما قال احد الشعراء :

يهرب الحزن المرير .
يجبر القلب الكسير .
لا دمـــوع .
لا انـــين .
حينما يشرق فى قلب الظلام .
بابتســـام .
عاطفا قلب كبير .

وهناك الالوف من ابناء المهنة الطبية ممن يؤمنون بهذه الحقيقة . وانى اشكر الله انى واحد منهم . وعلى الرغم من قصور البعض عن اداء

رسالتهم على الوجه الأكمل ، إلا أننا لا يمكن ان نتخذ من هذا مقياساً للجميع . فلا خدمة تعادل خدمة الممرضات . واننى أصرح — هكذا يقول الكاتب — . . . باننى استسلمت لمبضع الجراح خمس مرات . واننى اشكر الله لأنه هيأ لى هذا الجراح الماهر لانقاذ حياتى . ولكننى أقول أيضاً انه لولا العناية المباركة التى لقيتها على أيدى الممرضات لما كان مكانى هنا فى أرض الأحياء . فالايدى الرحيمة التى تحملنا أطفالاً صغاراً ، وترعانا شبابا فى مستهل العمر ، وتحنو علينا أزواجا ، هى التى تستطيع أن تمهد لنا الفراش الوثير إذا تلبدت الشمس بالغيوم ، وا كفهر افق الحيـاة .

فى يوم من الايام كنت أقوم بجولتى فى العنابر حينما لمحت صبياً صغيراً يقاسى من نوبة رهيبة من الألم . كانت عضلاته متقلصة ووجهه مربداً أزرق ، والعرق يتصبب من جبينه . وشاهدت إلى جواره الممرضة تحنو عليه وتمسح جبينه بماء الكولونيا وهى تقول فى حنان « لاتخش شيئا يا عزيزى . لا تخش شيئا . سيصل الطبيب حالا . . . . وكانما كان للمستها فعل السحر فى نفس الصبى المريض . فاسترخت عضلاته بعد قليل — وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه .

وفى خلال الحرب العالمية ، قام ملك بريطانيا والملكة مارى بزيارة الجنود المصابين فى احد المستشفيات . وكان هناك مصاب قيل

انه أصبح كتلة مشوهة يعلوها وجه ممزق . فقد عملت له سبع وعشرون عملية لاستخراج الرصاص والشظايا من جسده . وإذ وقفت الملكة إلى جوار سريره ، قالت:شكراً أيها البطل . هل هناك من خدمة اؤديها لك ؟ واغتصب الجريح ابتسامة باهتة وظهر على وجهه التردد ثم قال : « اشكرك . لا شيء — فقط ارجـــو أن تبلغى شكرى لممرضتى على ما قامت به نحوى من عناية ومحبة » . واستدعت الملـكة الممرضة وقالت لهـا : « انى اشكرك بالنيابة عن هذا المريض وعن نفسى أيضاً » .

ان الممرضات فى مستشفياتنا يقمن بواجباتهن على الوجه الاكمل . فهن يضحين بانفسهن فى سبيل حياة الغير . ان روح فلورنس نيتنجال التى كانت تتجول بين الجنود الجرحى حاملة فى يدها اليمنى مصباحها حتى انها دعيت السيدة ذات المصباح ، ما زالت تسرى فى كثير من خليفاتها . وما أجمل الصورة التى قدمها أحدهم فى ابيات رقيقة تصف رائدة التمريض الأولى :

كانت خدماتها مملؤة بالنعمة .

بسرعة وهدوء كانت تقوم بواجبها .

والابتسامة على الدوام لا تفارق شفتيها .

فقد كانت ترى المسيح فى فراش كل مريض .

والآن دعني أقص عليك قصة توضح ما أريد . فكل واحد فى لندن يعرف ميدان الطرف الاغر . وإلى جانب من هذا الميدان يقوم بناء فاخر يضم المتحف الوطنى الذى تدلف الالوف لزيارته كل عام . وإلى الجانب الآخر تقوم بناية كنيسة القديس مارتن التى يدوى صوت خدماتها على أجنحة الأثير . ومن الجهة المقابلة ترتفع البوابة التقليدية الفاخرة التى تؤدى إلى قصر بكنجهام ، ويرتفع خلفها تمثال نلسون على قاعدته المرتفعة . وهذه الصورة معروفة لكل لندنى .

ولكن القليلين لا يعرفون أن فى ميدان الطرف الاغر « أميراً » . وهذا الأمير لا ترى فيه علائم الملك . وإذا خاطبته لا تجد فى حديثه ما يدل على عظمة أو مركز رفيع . وليس له ممتلكات ولا منازل . ومع ذلك فهناك كثيرون يحبونه ويحترمونه وهو يمتهن مهنة وضيعة . فهو على باب الكنيسة يقف ويبيع بعض الصور الصغيرة والخرائط . وهذه المهنة ما كانت تدر عليه شيئاً الا ما كان يقوم به اوده . وتشير إلى ذلك عيناه الغائرتان ووجهه الذابل . ولكنك إذا نظرت اليه لا تستطيع أن تحول عينيك عنه . فنظراته تشع بالعطف وملامحه تفيض بالابتسام . وفى يوم من الأيام حملت نقالة الاسعاف إلى المستشفى سيدة شابة أصيبت فى حادث تصادم . وفى أثناء اقامتها بالمستشفى رأيت «الأمير» يتردد عليها كثيراً . كانت تلك الشابة تبيع زهورا فى الميدان . ولا بد أن الأمير قد تعرف عليها هناك . ومن شفتيها عرفت قصة ذلك الإنسان الفقير . قالت : « لقد عرفت ذلك الرجل منذ خمسة عشر عاماً . وأننا

جميعاً نحبه . وحينما يرى أنسانا فقيراً محتاجاً يضحى بآخر قرش عنده فى جيبه لمساعدته . وربما اضطر إلى قضاء اليوم كله بلا طعام » . وبقيت هذه السيدة مدة طويلة وصلت إلى سبعة أسابيع . وفى كل موعد زيارة كان يعودها «الأمير» حاملاً معه لها هدية فى كل مرة وبعض الهدايا كانت تكلفه كثيراً . ورأيته فى مرة يحضر لها عنبا أسمر . والعنب الأسود كما تعرف هو أحد ثمار المناطق الحارة . ولذلك فهو غالى الثمن جداً فى انكلترا . فقلت له الا يكلفك هذا كثيراً . فقال لى انها فاكهة حلوة . وهمس فى تواضع : « لقد كلفنى ما يوازى أجرة الغرفة التى اسكن فيها مدة ثلاثة أيام » .

ولم يمض وقت طويل حتى حملت سيارة الاسعاف هذا الأمير . وبدأ أن حالته اخطر من أن يشفع فيها الطب أو يتناولها الاطباء .

وقمنا بعمل عملية جراحية له . ولكنه لم يفق على الاطلاق من المخدر . ومن بين الأشياء التى ارسلت تذكارا لتضحيته ومحبته ، صليب ذهبى صغير من رفاق الطريق ، كما أحبو أن يلقبوا انفسهم . وقد علقوا هذا الشعار فى بطاقة كتبت عليها «فى ذكرى الرجل الذى ضحى بنفسه» . ولا يمكننى فى يوم من الأيام أن اسير فى ميدان الطرف الاغر الا وتطوف بذاكرتى صورة ذلك الرجل بجسمه الهزيل ، وهو يقتسم معيشته الضئيلة مع اخوته من الفقراء .

أن اختباراتى الكثيرة تؤكد لى ان فضائل كثيرة تنمو وتزدهر فى أماكن لا تظن أنها تدعو إلى نموها وازدهارها . فكثيراً ما ينبت الله الزهور الناضرة فى قلب الصخور .

دعنى اذكر لك حادثة أخرى : فمن بين المصابين الذين حملتهم سيارة الاسعاف إلى فى يوم من الأيام فتى لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة. وقد كان هذا الفتى يعمل مساعداً لسائق إحدى العربات. وفى يوم تسلق صبى صغير مؤخر العربة كما يفعل احيانا الأطفال الاشقياء . ولما شعر بان السائق قد احس به قفز بسرعة . وتصادف فى تلك الاثناء مرور عربة نقل صغيرة كادت تودى بحياته ، لولا أنه أسرع لنجدته ذلك الفتى المصاب واجتذبه بعيدا فى الوقت الذى مرت فيه عجلات العربة عليه . ولو نظرنا إلى ذلك الصبى المسكين بمنظار أهل العالم ، لما وجدنا فيه ما يستحق التقدير . فهو صبى صغير غير متعلم . ولكنى أقول لكم بان هذا الفتى قد فاق الكثيرين من الأطفال ، وانه يمكننا أن نضع إسمه بجوار أسماء كثيرين ممن ضحوا بحياتهم فى سبيل غيرهم. وان لم تكن الأرض قد وضعته فى مكانه اللائق ، فلا بد أن السماء قد قدمت له مركزه فرفعته إلى قدره . وليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع نفسه من أجل الآخرين .

وان كانت التضحية بالنفس هى إحدى فضائل المسيحية ، فانى أقول ان الصبر فى الشدة والضيقات هو ثمرة أخرى من ثمار الإيمان المسيحى .

وانني اذكر في هذ الصدد طبيباً يعمل في مستشفيات الأمراض العقلية . وقد انبأني ذلك الطبيب حادثة سيدة عجوز قضت في المستشفى معظم حياتها . وفي كل يوم على وجه التقريب ، كان يدخل غرفتها شيخ عجوز يحمل إليها الهدايا ، ويحدثها بلغة الحنان والعطف ، ويربت على شعرها الأبيض ، ويقول لها : ألا تعرفينني ياعزيزتي . وتنظر اليه السيدة التي فقدت عقلها نظرة جوفاء ولا تجيبه بكلمة . وبعد قليل يتأوه وينهض من مكانه قائلاً لها : وداعا يا عزيزتي . وعلمت أنه طوال خمسة عشر عاما لم يكف عن هذه الزيارة . وكان جواب زوجته له في كل مرة النظرة الجوفاء والصمت الكئيب . ثم يضيف الرجل بابتسامة صابرة : ولكنني لن أكف عن زيارتها مادام في نفس يتردد . وأني واثق بان هذه الزيارة المتكررة سوف تعيد إليها ذاكرتها التي فقدتها على أثر مصرع ابنائها الخمسة في احدى الغارات الجوية . وقبل أن يخرج من المكان تقدم وودع الممرضة بلطف وقال لها : ابذلي جهدك بالعناية بها .

ان رياح التعب قد تخمد نار المحبة ، ولكنها ليست المحبة المسيحية التي يقول فيها كاتب النشيد « مياه كثيرة لاتستطيع أن تطفىء المحبة والسيول لا تغمرها » .

هذه هي حياة العنابر . . . هذه هي ديانة المستشفيات . . . ديانة أولئك الاخصائيين الذين يبذلون من وقتهم واعصابهم واوقاتهم وراحتهم

فى سبيل خدمة المرضى مجانا وبلا مقابل . . . ديانة الممرضات اللائى يضحين ببيوتهن وازواجهن فى سبيل تخفيف الآم المرضى وجبر القلوب الكسيرة . . . ديانة الرجال والنساء وحتى الأطفال الذين يجابهون الموت بالابتسام . أولئك الذين يحتملوا الألم والمرض والحمى المحرقة بلا تذمر ولا شكوى .

من أين وهبوا هذه الروح وتعلموها ؟ من ذلك الطبيب الأعظم الذى كانت حياته حياة الخدمة والتضحية ، والذى عرف فى نفسه الألم والضيق والدموع ، لأنه فيما هو يتألم مجربا يقدر أن يعين المجربين . ان يسوع المسيح هو الطبيب الأعظم ، ولكنه قبل كل شيء هو الذى يهب المتعبين قوة الاحتمال ، ويضع أمامهم مثاله الصالح ليتبعوا خطواته .

وحينما يأتى ثانية على سحاب المجد ، سوف يرى أموراً كثيرة تسبب له الألم ، ولكنه سيرى أيضاً مثاله الكامل فى نفوس الكثيرين .

الفصل السادس

السامرى الصالح

قرأت كلمة للكاتب جورج مكدونالد يقول فيها :

« إن كنت أستطيع أن أضيف بريشتى لمسة من لمسات الغروب البهيج فى حياة أى إنسان ، فعندها سوف أوقن أننى وضعت يدى فى يد الله عاملا معه » .

فى يوم من الأيام التقيت بواحد من كبار الوعاظ ، وسرنا معا فى الطريق . فالتقينا بامرأة فقيرة طلبت منه إحسانا . ولكن يبدو أنه كان على موعد فلم يلق بالا إليها . وبعد أن ابتعدنا عنها قليلا ، توقف الرجل عن السير وبحث فى جيوبه وأخرج ورقة من أوراق النقد ، وعاد إليها وأعطاها لها . فقلت له لماذا غيرت رأيك . فكان جوابه لى مما لا أنساه طيلة العمر . قال ، من يدرى لعل هذه السيدة الفقيرة ملاك فى ثوب إنسان . وأعرف أيضا إنسانا غنيا وهو صديق شخصى لى ، لا يلتقى بمحتاج فى الطريق إلا ويمد يده بالاحسان إليه . وفى مرة قال له أحد اصدقائه

انهم كاذبون . وأنت تضيع وقتك ومالك أيضا . فأجاب ،إن كان هناك واحد منهم يستحق الاحسان وسط المائة ، فلاجل خاطر هذا الواحد ينبغى أن أعطف عليهم .

وتذكرت وأنا أكتب هذه الكلمات قصة السامرى الصالح . وقلت فى نفسى ألا يوجد أمثال هذا السامرى القديم الذى عاش فى عصر السيد المسيح فى أيامنا الحاضرة . وهذه صورة أقدمها لكم تشرح لنا قصة السامرى الصالح القديم فى صورة عصرية . فأحياناً نحتاج فى المستشفى إلى معلومات عن الآخرين وإلى عدة هيئات أخرى . فقد نحتاج إلى رجال الشرطة أو إلى معونة بيوت العمل ، أو أحيانا إلى شرطة النجدة لتقدم لنا تقريراً عن مريض فقد الذاكرة ، ولم يعرف من هو وأين هو . ولكن الحادثة التالية لا تدور حول مريض فقد الذاكرة ، بل حول سيدة أتت إلينا فى ظروف غريبة .

ففى أحد الأيام وقفت أمام المستشفى سيارة صغيرة تحمل هذه السيدة . وقال لنا السائق انه وجد هذه المرأة على بعد ثلاثين ميلا من لندن ، وهى فى حالة هبوط واعياء . وكان يصحب السيدة زوجها وطفلة صغيرة .. ولقد طلب الزوج من سائق السيارة الصغيرة أن يحمل زوجته إلى أقرب مستشفى . وقد طاف السائق باحثا فى مستشفيات أخرى عن أسرة خالية فلم يجد . وكل ما فعلوه أنهم عملوا الاسعافات اللازمة . وأخيرا تذكر الرجل المستشفى الذى أعمل

به . وهيأنا المكان للمريضة وطلبنا منها اسمها وعنوانها . فأعطت اسما «مرثا استيفنسون» ، وأضافت «ليس لنا بيت الآن فمنذ زمن ونحن نبحث عن عمل ، حتى انتهى بنا الأمر إلى الشارع » . وأضاف السائق « ان الزوج والطفلة سيذهبان إلى الملجأ وسوف اتصل بهما لأخبرهما بما عملت » . ولاحظت أن السيدة تنتابها نوبات من السعال الحاد . وحينما قمت بقياس درجة الحرارة ، وجدتها مرتفعة جدا ورجحت أنها مصابة بالتهاب رئوى .

وفى صبيحة اليوم التالى عاد السائق إلى المستشفى وقد بدا عليه الاضطراب وقال : لقد بحثت عن مكان الزوج وعن الطفلة فلم أجد لهما أثرا . هل هناك معونة أستطيع أن أقدمها للزوجة المريضة . إنى أريد أن أقوم بأية خدمة تطلب منى .

يا للقلوب الرحيمة الفياضة بالعطف . أننا إذ نتأمل فيما فعله هـذا الإنسان ، وهو مثل من الأمثلة المتعددة الكثيرة فى هذا الوجود ، فإننا نثق بأن الدنيا ما تزال بخير .

ومضى يومان على هذا الحادث ولم يظهر للزوج أثر واضطررنا أن نلجأ إلى الاذاعة . وهـذه الطريقة غالبا ما تـكون مجدية . ولـكن فى هـذه الحالة بالذات لم نصل إلى نتيجـة . ولا بد أن ذلك الرجل المتهدم وطفلته الصغيرة قد ضاع أثرهما وسط زحام الحياة .

شبحان يتدافعان وسط آلاف الأشباح المرئية التى تندفع إلى لا شيء ، تفتقر إلى اليد التى تسند والقلب الفائض بالحنان ، ومع ذلك يمنعها الحياء وعزة النفس أن تنتهج نهج الاستدانة ، أو تمد يدها للاستعانة بالغير .

وفى أثناء ذلك طافت بخيالى صورة مارثا المريضة . كانت متهالكة فى سريرها وبدا لى أنها لا تبعد كثيرا عن خاتمة المطاف . وقلت فى نفسى هذا هو الأفضل لها . فما الداعى لأن تفتح عينيها مرة أخرى على عالم الشقاء والمتاعب ؟

وكأنما قرأت أفكارى . فتحركت شفتاها لتهمس بكلمات غير مسموعة . وعادت لتكرر الكلمات وقد ارتسم الأسى على ملامحها . وأصغيت إليها فإذا بها تنطق باسم زوجها وطفلتها . وحاولت الممرضة أن تبعث فيها روح الحياة والشجاعة . فكان جوابها : لا تهتمى كثيرا بى أننى أقترب من بيتى الأبدى . وأنا هنا فى راحة ، فى سلام . ومع ذلك فان شعار الطبيب فى قلب المستشفيات أن يستمر محاربا المرض حتى النهاية . فاليأس لا وجود له هناك .

وفى ثالث يوم أخبرنى الطبيب المعالج ، بأنها ما تزال تسأل عن زوجها وطفلتها . ومع ذلك لم يعثر لهما على أثر ، إلى أن جاء يوم دق فيه جرس التليفون فى مكتبى ، وكان المتحدث أحد رجال

الشرطة يسأل : « هل عندكم مريضة تدعى مرثا ستيفنسون ؟ »

وقفزت من مكانى فى دهشة وفرح . وفى أقل من نصف ساعة كان الزوج والطفلة بجوار سرير المريضة . .

وهتف الزوج فى تأثر « مرثا . . »

وفتحت المريضة عينيها ، وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها . ومدت يدها النحيلة لتستقر بين يدى زوجها . أما الطفلة فقد بدا على وجهها الفرح الغامر .. كم هو عجيب ! إنه حينما تفشل وسائل الطب الحديث ، يكون لرؤية حبيب من الأثر الشافى ما تعجز عنه أنجع الأدوية .

وقص الزوج قصته . قال انه سار على قدميه ميلين كاملين حتى وصل إلى العاصمة ، وأنه بحث فى كل المستشفيات على وجه التقريب ، حتى اضطر أخيرا إلى الالتجاء لمركز البوليس .. ثم تحدث عن شئونه الخاصة وكان حديثه تكراراً للقصة القديمة فى حياة العاملين الفقراء ... قصة التعطل ، والجوع ، والعرى ، والتشرد ..

أما الطفلة تقد دبرنا لها مكاناً عند أسرة تقطن بالقرب من المستشفى ، أما الزوج فقد أصر على البقاء إلى جوار زوجته طيلة فترة العلاج .

اننا كثيرا ما نسىء الظن بأولئك الذين يتسكعون فى الطرقات ،

ويفترشون الـــثرى على الأفاريز ، ونظن أنهم طغمــة لا نفــع فيهـا ، ولا يصلح لها إلا المصحات ، ودور التأديب والسجون .
ولـكن الذين يدرسون حالة ذلك الإنسان ، يرى أن بين أولئك أناساً نظائر لعازر ، ذلك الفقير الأمين ، الذى تحدث عنه السيد المسيح منذ ألفى عام . .

فبعد شهر واحد من شفاء زوجته ، وعودتهما إلى المنزل ، وصلت للمستشفى حوالة بريدية بمبلغ من المـال ، وقد أرفقت بها ورقة جاء فيها « هذا ما استطعت أن أوفره من مرتبى الأول أقدمه إعترافا بجميلـكم ، وسأتبعه بمبالغ أخرى ، كلما تيسر ذلك » . والأمضاء دافيد ، ومرثا ستيفنسون . .

ولقد كان الفضل فى ذلك كله للسامرى الصالح ، ذلك السائق الفقير الطيب القلب ، الذى لم ينقطع يوما واحدا عن زيارة المريضة ، وتقديم العون لها ، والذى دبر وسيلة العيش لزوجها الفقير ، وأنقذ الأسرة من هلاك محقق .

ويضيق بى الوقت ، إذا تحدثت عمن أسميه « السيد كبير القلب » ذلك الإنسان الثرى ، الذى أوقف حياته ، وجهده ، وماله ، وعربته ، للاتيان بالمرضى والمصابين للمستشفى ، والذى كان يواليهم بزيارته ، ومعونته كل يوم ، والذى كان يجد أسمى درجات السعادة فى الجلوس فى فى عنبر الأطفال المرضى ، والتحدث إليهم ، وإحضار الهدايا لهم . ولا زلت أذكر كلمته التقليدية حينما كان يدخل العنبر فيلاقيه الأطفال المرضى

بالهتاف . وبجوار كل سرير كان يقف ويقول فى براءة تشبه براءة الأطفال : « خمن ماذا أحضرت لك ؟ » وبقلب فائض يخرج لعبه . لقد كان ذلك الإنسان أسعد من فى الوجود ، لأنه عرف كيف يدخل السعادة إلى قلوب المحرومين . . وبعد انتقاله لم يجدوا عنده شيئا يذكر عدا القليل من المال ، وصورة كبيرة للسيد المسيح كان يعلقها على الدوام فوق سريره .. ولم ينجب ذلك الرجل طفلا ، لكن كم من مئات الأطفال كان يصيحون هاتفين « بابا . . بابا » حينما كانوا يشاهدونه . وعلى مكتبه وجدت هذه الكلمات :

« ليكن لك القلب الكبير الذى يعطف .

والنفس الهادئة التى تحتمل وتنصف .

واللمسة الكريمة التى لا تتوقف » .

منذ عشرين قرنا من الزمان ، سار السامرى الصالح فى الطريق المنفرد ، ليلتقى بعدو جريح ، يحمله ويضمد جراحه ، ويقدم له العون ، ويأخذه إلى فندق قريب ، وينفق عليه من جيبه . وشكراً لله أنه حتى هذا اليوم ، لا تزال ذكرى هذا الإنسان الطيب ماثلة فى العقول ، والقلوب ، وروحه توحى لكثيرين بأن يتبعوا مثاله . وما زال هناك الذين يتبعون أثر خطوات السامرى الأعظم ، سيدنا المبارك ، الذى يجول فى عالمنا ، يضمد الجراح الفاغرة ، ويسند النفوس الحائرة ، ويجبر القلوب الكسيرة .. مجدا لاسمه إلى الأبد .. آمين .

الفصل السابع

ذكريات فى القدس الصغير[1]

هناك مكان واحد فى المستشفى نستطيع أن نتحقق فيه كلمات أحد الشعراء الملهمين ، حين تضرع لله فى أبيات رقيقة قائلا :

أسكب علينا من ندى
سلام نعمتـــــك .
فيرتوى الفؤاد من
جمـــال طلعتك .

هذا المكان الوحيد هو الكنيسة الملحقة بالمستشفى . فى هذا القدس الهادىء الصغير البعيد عن العالم تستطيع النفس أن تحلق بأجنحة غير منظورة فى سماء الروح . فى فناء المستشفى يتعالى ضجيج المرضى . وفى

---

(١) فى الغرب تلحق كنيسة صغيرة بكل مستشفى .

عنابرها تتصارع النفوس وتتعارك مع الموت ، كسفن تصارع الأمواج الهائجة ، ولكن فى « بيت إيل » هذا يسود سلام الله الذى يفوق كل عقل . هنا نجثو على ركبنا مثقلين بضعفاتنا وهمومنا ، ونقوم فى ملء القوة . . . فى جدة الحياة لنعاود الصراع من جديد . . .

وفى هذا المكان تجتمع المرضات صبيحة كل يوم يطلبن القوة والعون من معين القوة الذى لا ينضب . وإلى هذا المكان أيضاً يأتى المرضى ، البعض بقلوب فائضة تقدم الحمد لله على نعمة الشفاء ، والبعض الآخر بأنفاس لا هثة ، وقلوب واجفة ، تطلب المعونة الالهية لاجتياز محنة ، أو نجاح عملية جراحية . وفى هذا المكان أيضاً يقوم راعى الكنيسة الصغيرة بعماد الأطفال الصغار وتسجيل أسمائهم ضمن أسماء أسر المسيح المباركة . . وإلى هذا المكان أيضاً يحمل الذين أختارتهم العناية الإلهية للبيت الأبدى ، قبل أن توسدهم الأيدى فى المرقد الأخير ...

وذات يوم كنت أقف فى هذا المكان . حين بدأت تنساب أمامى صور من الماضى ، وبدأت أقرأ سطور التاريخ ككتاب مفتوح . فإلى هذا المكان أتى الرحالة العظيم « لفنستون » حين كان يوالى تمرينه الطبى فى عنابر المستشفى . وعلى أرضه جثا أمام الله ، مكرساً حياته للخدمة الطويلة الشاقة التى عرفها فيما بعد ، نائلا من السيد هذا الوعد المبارك الذى كان شعاره طيلة الحياة : «الرب ظل لك عن يدك اليمنى . لا تضربك الشمس

بالنهار ، ولا القمر بالليل . ! . . الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر » .

وهنا أيضاً يخيل لى إنى أرى طيف «فلورنس نيتنجيل» . فسجلات المستشفى تؤكد أنها أتت إلى هنا بعد نهاية حرب القرم ، ولا بد أنها ركعت فى هذا المكان . وهنا كان يلذ للملكة « الكسندرة » أن تصرف لحظات فى الهدوء والتأمل . ان الأرض التى أقف عليها أرض مقدسة . وبعد دقائق رأيت نعشاً يحمل إلى الداخل ، كان يحوى جثمان مدير المستشفى السابق . وطافت بذاكرتى صورة ذلك الرجل الذى خدم المستشفى طيلة جيل كامل من الزمان ، والابتسامة لا تفارق شفته لحظة واحدة . وهاقد أختفى ذلك الوجه ولن يشرق علينا بعد .

يقولون انه حينما يشرف الأنسان على الموت غرقاً تتراءى أمام عينيه فى لحظة واحدة ، كل صورة حياته الماضية . وفى هذه اللحظات الخالدة التى وقفت فيها وجهاً لوجه ، أمام جثمان صديقى ، خيل إلى أننى أقرأ قصة حياته الكريمة . فلقد كان زميلا لى طيلة ستة عشر عاماً ، رافقته فيها فى عمله المضنى بالليل ، وبالنهـار . . فى ظروف قاسيـة ، وفى ظروف موآتية . . أمام النجـاح ، وفى وجه الفشـل . . لم أعرف طيلة هذه الأوقات من هو أكثر منه لباقة ، وحكمة ، وحضور خاطر . لقد كان العمل فى المستشفى بالنسبة له واجباً مقدسـاً . وحينما فـكر البعض فى

تعضيد صندوق المستشفى عن طريق إقامة حفلات السبـاق كان له رأيه السليم : « إن مستشفى « تشارنج كروس » لن يعتمد على ما يجمع من موائد القمار . . أننـا سنظل نعمل ونعمل بالقليل الذى لدينـا ونحن واثقون أن السماء ستمد الأيدى لمعونتنا » .

ولقد كانت له ثقة الأطفال فى عناية الآب السماوى ومحبته . أذكر انه كان مقبلاً على أجراء عملية خطيرة له . وقلت له مطمئناً « ثق لا تخف انك بين أيد أمينة » . وقد كنت أقصد أن المـكلف بإجراء العملية من أمهر الجراحين . فاجاب باسماً « أنا أعلم أننى بين أيد أمينة ترفعنى هنا وبطول الأبدية » . وها هو الآن يرقد فى سلام بين تلك الأذرع الأمينة كما ينام الطفل المتعب فى أحضان أمه . . أتراه قد أنقطع عن الوجود ؟ حاشا . أننى لا أصدق أن حياته أنتهت . أنه ما يزال يتحدث إلى . . إننى أثق بانه لا موت هناك ، بل حياة وخلود ...

والذكرى الثانية التى تختلط بكنيسة المستشفى فى مخيلتى ، هى صورة طفل صغير لطيف كانوا ينادونه بلقب « بردى » إى عصفورى الصغير ...

كان هذا « العصفور » من نزلاء عنبر الأطفال ، وحينما تماثل للشفاء سمحت له الممرضات بأن يتجول ساعة فى كل صبح . وكأى طفل مدلل ، كان يحدث ضجيجاً وعبثاً فى كل مكان يصل إليه . وحينما كان يبـــق

صامتاً ، كانت المرضات يتوقعن حدوث شيء حزين . وفى يوم بدأ «العصفور» واجماً . لقد كان يفكر فى شيء أسرته إليه رئيسة المرضات.. فقد ربتت على كتفه وقالت له . . حذار يا « بردى » من أن تتصرف بقسوة مع « ديزى .. الصغيرة الراقدة فى سرير رقم ٥ » . ثم همست فى أذنه بشيء جعله يبدو واجماً حزيناً . . . . وبعد فترة أسرع «العصفور» إلى سرير رقم ٥ وبدأ ينظر فى براءة إلى وجه الطفلة الشاحب . ثم اتجه إلى أصيص من الزهور على المائدة ، وانتزع منه زهرة ، وضعها بخجل بين يديها . كانت هذه بداية أعمال متعددة تظهر محبته ، وحنانه . وكم كان الاثنان يشاهدان ، فى الدقائق التى تخلو فيها المريضة من الألم ، وقد تشابكت أياديهما الصغيرة وهما يلعبان ويثرثران . ولكن هذه الصداقة الصغيرة البريئة التى نمت وترعرعت فى جنة الألم ، لم يقدر لها أن تدوم طويلا . فقد ثقل المرض على « ديزى » وراحت فى غيبوبة طويلة . . . ونظر إليها « العصفور » الصغير ، والدموع تملأ عينيه . وسمعته إحدى المرضات يهمس بصلاة قائلا :

أيها الراعى العظيم .

يامحباً للصغار .

فى حنانك الكريم .

كن معى حتى النهار .

كانت هذه هى الصلاة التى تعلمها فى مدرسة الأحد . ولكن الراعى العظيم رأى أنه من الأفضل أن يحمل الحمل الصغير على منكبيه إلى الحظيرة السماوية ...

وإلى الكنيسة حمل النعش الصغير الذى يحوى جثمان « ديزى » . وفى اقدام من حملوه أسرع « العصفور » الصغير بخطوات متعثرة وهو يتطلع فى دهشة وصمت . ترى ماذا يعنى كل هذا ؟ وإلى جوار النعش كان يقف والد ديزى ووالدتها . وعليه كانت ترتكز باقة من الزهور تحمل بطاقة كتب عليها ....

« وقال البستانى : من قطف هذه الزهرة ؟.

فاجابه السيد : لقد قطفتها لنفسى ! ..... »

والذكرى الثالثة التى تختلط بكنيسة المستشفى لن أرويها أنا ، بل سأنقلها عن خطاب من قارىء نشرته إحدى الجرائد المعروفة .

والخطاب يدور حول سيدة مريضة لم يفلح الأطباء فى شفائها . وبالرغم من أنها كانت تعيش فى أدنبره ، فقد أستولى على تفكيرها أعتقاد جازم بأنها لن تنال الشفاء إلا بين جدران مستشفى « تشارنج كروس » بلندن . يقول كاتب الخطاب :

« وحاولت أن أقنعها بأن لدينا من المستشفيات ما هو أكثر

استعدادا ، ولدينا من الأخصائيين ، من له الخبرة والدراسة ، مايفوق مدير مستشفى تشارنج كروس . ولكن كل هذا لم يفلح فى إقناعها . . وكان ردها الوحيد على كل حججى : إنى واثقة بأننى سأنال الشفاء هنالك . وسافرنا هذه المسافة الطويلة . ولم يكن بالمستشفى شيء غير عادى وتحدث إليها مدير المستشفى بكل بساطة بصوته الرقيق الهادىء . . . ولم أشاهد معجزة تجرى أمامى سوى هذه المعجزة الواحدة : ان هذه السيدة المريضة دخلت المستشفى بجسد ذابل ، وقلب محطم ، وانفاس متهافتة ، وخرجت بعد يوم واحد وهى لا تشكو من شيء على الأطلاق . وحتى هذا اليوم ما زالت سليمة معافاة ...! هذه هى القصة ... فما هو السر ؟ ! .

السر يكمن ليس فى دواء مادى ، ولا علاج طبيب ، بل فى هذا المكان الواحد فى القدس الصغير ! !

فلقد أجرى الأطباء الفحص عليها ، وتأكدوا من سلامتها . وتأكدوا أن المرض ليس جسمانياً ، وظيفيا ، بل هو روحى نفسانى . لقد فقدت الثقة فى أطبائها ، وفى أقربائها . وفى جيرانها ، وفى كل شيء ، حتى فى نفسها . وفى المستشفى أكتشفت شيئاً جديداً . لقد طافت بالمرضى ورأت ألوانا من الصفات المسيحية : رأت الصبر ، والمحبة ، والشكر لله فى وسط ألوان الآلام . رأت البعض منهم يصارع الموت ، وابتسامة

الثقة الهادئة ، والايمان القوى ، على شفتيه . ورأت الممرضات يسعين في عملهن الممل القاسى ، وهن يلاطفن هذا ، ويسندن ذاك بكل لطف ووداعة متمثلات بسيدهن العظيم . وأصطحبها أحدهم لترى كنيسة المستشفى . وهناك طلبت أن تصلى وحيدة . ولم تمض دقائق حتى خرجت إلينا بوجه باش مشع . قال كاتب المقال « لم أر معجزة تجرى أمامى » . وما كان له أن يرى : ان ذاك الذى أجرى الكشف على المريضة ، وعرف الداء ، وقدم لها الدواء ، لم يكن طبيباً بشريا بـــل كان طبيب النفوس العظيم . وحينما أخفقت المستشفى أن تقدم لها الدواء ، أستطاعت أن تجد هذه السيدة شفاءها بين جدران كنيسة المستشفى ، على أيدى ذاك الذى قال « تعالوا إلى ياجميع المتعبين ، والثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم . إحملوا نيرى عليكم ... فتجدوا راحة لنفوسكم » ... قال أوغسطينوس « لقد خلقتنا يا إلهى منك ، ولن تجد قلوبنا راحتها إ لا فيك »

إن ذلك القدس المنعزل صغير محدود . لا يعـــرفه كثيرون ، ولا تتكدس فيه الجماهير . ولـكن نوافذه على الدوام مفتوحة تجاه أورشليم . وكم من نفس أستطاعت أن تختبر فيه صدق القول القديم :

« ماهذا الا بيت الله . . وهذا باب السماء » .

الفصل الثامن

قلوب فى الأتون

يعلق الكاتب المعروف « اسكندر هوايت » على ما ورد فى سفر الخروج عن موسى حينما نزل من الجبل ، من أن جلد وجهه كان يلمع وهو لا يعلم ، بالقول : « ألم يحدث أنك تطلعت إلى صورة وجهك فى المرآة ، بعد ساعة من الشركة الحلوة مع الله ؟ ألم تلاحظ مسحة الفرح والتألق ، والنور ، ترتسم كهالة مشعة على ملامحك ؟ .. »

أذكر أننى رأيت هالة النور هذه ترتسم على وجه شاب صغير دعيت يوما إلى جوار فراشه . لقد بقى عامين كاملين مقيداً بمرضه إلى سريره إثر كسر فى عظام ظهره ، كان يقطن مع أمه الأرملة فى غرفتين على السطوح فى بيت حقير فى أقصى ركن من أركان حارة قذرة . وكانت أمه تقوم بسد حاجات الأسرة ، من جنيه واحد تكتسبه فى الأسبوع - جنيه واحد لجسدين ، ونفسين ، وغرفتين !

وعلى منضدة متواضعة شاهدت صورة فتاة ، وأشار إليها المريض

وهمس بأنفاس متهافتة «أتذكرها ؟» وقلت مجيبا «نعم ..» فلقد اعتادت صاحبة الصورة أن تأتى لزيارته فى المستشفى ..

وعاد مرة أخرى يهمس « انها خطيبتى ، لقد تركتنى حينما رأت حالتى مستعصية ، ولكننى لا ألومها » . وترقرقت الدموع فى عينيه وعاد يقول :

« إن هذه الصورة هى النافذة التى أطل منها على أرض أحلامى ، أننى أرى فيها زوجتى ، وبيتى الصغير ، وأولادى السعداء ، وعشى الهنيء ، ولو أننى أعرف أن حلما واحدا من هذه الأحلام لن يتحقق على الاطلاق ! » .

وحينما هممت بالخروج لحقت بى أمه إلى عتبة المكان . وقلت لها « هل تحسين بالسعادة فى وسط هذا الأتون المتقد ؟ » وقالت الأم باسمة « كل السعادة .. ومن تراه لا يختبر السعادة مع قديس كهذا ؟ . . لقد كان وجهه فى وسط أتون التجارب تنعكس عليه النيران فيشع بالنور» .

وليست هذه هى الحالة الوحيدة التى رأيت فيها نفساً تحمل صليبها ، وتسير وراء سيدها خطوة فخطوة ، بكل رضى وفرح وتسليم ، فى الطريق الدامى .

أذكر راعيا باسم « صموئيل مريوث » قابلته وهو على وشك إجراء

عميلة خطيرة . ولم ار لمحة من الانفعال ترتسم على وجه ، بل بالعكس كان يترنم بترنيم الشكر والحمد . طوباه ذلك الإنسان الذى يستطيع أن يتقدم بمزامير الحمد فى ساعة الألم والتجربة . كتبت أمى تقول لى :

« تمسك به على الدوام .

وستجده فى يوم الشر .

عزاؤك ، وقوتك ، وكل شىء لك » .

وهنا فى الآم هذا الراعى الوديع شاهدت تأكيد هذا الحق .

فى يوم قال لى : هل يمكن أن تأمر بانتقالى إلى سرير رقم ٨ ؟ . . وإنى أعرف أن كثيرين يتشاءمون من سرير رقم ١٣ . ولكنى ما كنت أعتقد إن الرقم ٨ يدعو إلى التشاؤم . فضلا عن إننى لا أعتقد بأن هذا الرجل يتطير أو يتفاءل . ولما لمح دهشتى ، قال مفسراً .. إننى سأكون هناك بين أخوين ، فقد كان أثنان من طائفته يحتلان السريرين المجاورين هناك ، وأردت أن أتعرف على هذين الزميلين . أما الأول فقد كان مشرفاً على بساتين أحد الأثرياء . وأستمرت الحياة سهلة طيبة معه إلى خمس سنوات خلت حينما أصيبت زوجته بفالج لا شفاء منه وانتهى بها الأمر إلى إحدى المصحات .

قال الزوج « لقد داومت على زيارتها يومياً طيلة هذه المدة . مع أنها

أصبحت الآن لا تعرف أحداً ولا تعرفنى . وحتى لو عرفت فانها لن تستطيع أن تنطق بكلمة ، فقد أمسك لسانها عن الكلام ٠٠٠ وجاءت الضربة التاليةحينما طرد الرجل المسكين من عمله . وأضطر لمغادرة الكوخ الذى يقطنه . يقول « وشكرت الله أن زوجتى لا تعى شيئاً . فلقد كان البيت بأثاثه البسيط جزءاً من كيانها » . وهاهى الضربة الأخيرة حينما أصيب بالتهاب حاد فى عظام ساقه . ومن المؤكد أنه لن يخرج من المستشفى حياً فقد عجزت معه حيل الأطباء .

وفى يوم كنت أمر فى العنبر حينما بدا لى وكأنه يتحدث إلى نفسه . وأقتربت منه فسمعته يردد القول : .

« الله محبة ٠٠ الله محبة ٠٠ مبارك اسمه للأبد ٠٠ »

ولما لمحنى قال لى « إن هذا الألم فظيع ٠٠ فظيع للغاية ٠٠ ولكنى أومن أن الله محبة ٠٠» . كانت عيناه تشعان بنور علوى . لقد وصل هذا البستانى البسيط إلى اختبار الرسول حين كتب فى رسالته إلى أهل رومية يقول « من سيفصلنا عن محبة المسيح ؟ اشدة . أم ضيق ٠ أم جوع ٠ أم عرى ٠ أم خطر ٠ أم سيف ؟ فانى متيقن أنه لا موت ، ولا حياة ، ولا أمور حاضرة ، ولا مستقبلة ربنا ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا » ٠

قال كاتب الرؤيا للملاك «من هؤلاء المسربلين بالثياب البيض؟ ومن

أين أتوا ؟ » فاجابه الملاك « هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم فى دم الحمل » .

ترنم الراعى بترانيم المجد فى الآمه . . .

وقال البستانى فى وسط مصابه « الله محبـة ! » .

والشخص الثالث فى هذه المجموعة الثلاثية ، كان يختلف اختلافا تاما عن زميليه . كان شابا لا يتجاوز السادسة والعشرين من العمر . ويبدو أنه كان أكثر علما وثقافة . ولكنه نظير زميله كان زميلاً فى كلية الألم والتجارب. كما أنه كانت تربطه معه العقيدة الواحدة، والاختبار الدينى الواحد..

وحينما دخل المستشفى لم تبد حالته تنذر بالخطر إلى أن جاء التحليل القاطع : سرطان فى الحنجرة والبلعوم . وإضطر الاطباء إلى استئصال الجزء المصاب . ولم يكن المريض يستطيع أن يتناول طعامه أو شرابه . بل ما كان فى إمكانه أن ينطق بكلمة واحدة لخطيبته التى كانت تجلس ساعات طوالا إلى جـواره تقرأ له من كتاب . . وأقتربت فى فرصة لأصغى إلى ما كانت تقرأ . وسمعتها تتلو هذه الكلمات :

« هناك ما هو أردأ من الفشل ، وأقسى من المصائب ، انه اليأس المطبق الذى يمنعنا من أن نحاول من جديد . انها الدموع التى تحجب عنا رؤية وجه المحب الذى يبدو إلى جوارنا ماداً يمناه ليقلينا من عثارنا . هذه الحالة أسميها حالة « القصبة المرضوضة » . ان متاعبنا وامراضنا وآلامنا ،

وهمومنا ، وفشلنا ، كلها أصوات رحيمة تدعونا إليه . وما فرصة تجربتنا وفشلنا ، إلا فرصته هو ليمجد ذاته فينا ، وفى خلاصنا . تأمل قليلاً فى القصبة المرضوضة المحطمة على شاطىء البحيرة . ان الشتاء لن يقدم لها سوى الحطام والأحزان . ولكن سوف يأتى الربيع . ومع الربيع ستقوم ، وتنتصب ، وتزدهر مرة أخرى ، وتبدأ حياتها من جديد . هذا ما يحدث حينما يأتى المسيح ويلمس بيديه القلوب الكسيرة ، انه يخلق فينا القلب الجديد ، والرجاء الجديد ، والحياة الجديدة .

« وحينما قام الرومان بمحاكمة سيدنا له المجد ، قبيل صلبه ، تقدموا دون أن يدروا ، بأفعال يصح أن نتخذ منها رموزاً مجيدة . وأروع هذه الرموز حينما وضعوا فى يمين السيد قصبة مرضوضة انتزعوها كيفما أتفق من هضبة قريبة . وامسك السيد القصبة وضمها فى حنان إلى صدره ، قريباً من قلبه . ولقد كانت هذه القصة رمزا للقلوب المحطمة ، والنفوس البشرية المرضوضة مدى الأجيال . ولعل السيد فى هذه اللحظات الحاسمة قد تذكر قول النبى فى القديم : «قصبة مرضوضة لا يقصف »

وانتهى الفصل الرائع ، وأغلقت الفتاة الكتاب .

وقبل أن أغادر المكان أفحص مريضاً آخر همست فى أذن الشاب المريض «هل أنت أحسن اليوم ؟» ... ولم يستطع أن يجيب على سؤالى ، بصوت مسموع ، ولكنه أمسك بورقة وقلم ، وكتب هذه السطور الجميلة :

« أن ذاب قلبى داخلى

وزاد بى الأنـــين

وأشتد حـــزنى غامراً

نفسى ولا معـــين .

ما دام ربى قـــد بدأ

مـــؤازراً مشـــدداً

فلست أخشى من ردى

وســـيدى أمين » .

قال لى « صموئيل » بعد أيام : « غدا سانتهى من العملية الجراحية » .
ثم أضاف قائلاً : « لا تظن أننى أجابه الموقف فى خير خوف » . ثم ترنم بالترنيمة المعروفة القائلة :

« لا أعـــلم المخبوء لى

فى مسكن الشـــقاء

وهـــل ألاقى ميتـــة

أو ألتـــقى شـــفاء

« لكنى عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتى إلى ذلك اليوم . . . »

قد يبدو للقارىء العزيز انه لا توجد صلة بين عنبر المستشفى الذى يتكدس فيه المرضى ، وبين مناظر الكتاب المقدس فى العهد الجديد . ومع ذلك فأننى أرى هناك صورة واحدة تتمثل فى خيالى ، وكأنها تكرار لواقع الحياة فى العنابر . والصورة تبدو فى زنزانة فى سجن مامرتين أقسى سجون روما ، فى كيان انسان محطم يكتب رسالة إلى احبائه ، ويداه مثقلتان بالقيود الحديدية التى تربطه إلى جدار السجن . .

ولكن هذه الزنزانة سرعان ما تتسع أمامه ، وكأنى بها فى اتساع العالم أجمع . وإذا بالسجن الذى فيه يبدو أمامى وكأنما يحلق بأجنحة غير منظورة فى سماء الروح . . . وكأنه لا توجد قيود هناك تربطه بالألم ، والسجن ، والعذاب ، والمصير الرهيب ، واذا به يكتب إلى احبائه قائلاً :

« افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً أفرحوا هللويا ! من سيفصلنا عن محبة المسيح ؟ وداعاً أيها الحزن والتنهد ! وداعا أيها الأنين والدموع ! قد يصبح جسدى كزنزانة من الألم ، ولكنه لن يستطيع أن يقيد نفسى ، فالهى المحب ما زال فى سمائه ، وهو أيضاً بجوارى يرعانى بمحبته . وقد أكون فى قلب الأتون المحمى سبعة أضعاف . ولكن النار ستصبح سلاما على جسدى ونفسى ، لأن الرابع الشبيه بابن الألهة هو معى . . . ولو فى قلب النار .

ان كل غيمة سوداء فى حياتنا ، يحيط بها إطار ذهبي من أشعة شمس البر . . . أشعة المحبة والرحمة ، والقلب الكبير ، والعناية الفائضة . .

« تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل »

« قصبة مرضوضة لا يقصف »

« لأن الله محبة » . . . .

الفصل التاسع

ليكن لكم إيمان بالله

اننا كثيراً ما نتحدث عن التغييرات التي طرأت على العالم في القرن العشرين وخاصة في منتصف القرن الأخير . فالطائرات قد شاع استخدامها في التنقل بدلا من الوسائل الأخرى . ومن يدري ؟ ربما تمكن الإنسان في القريب العاجل أن يستبدل بالطائرات الصاروخ الموجه ينقله عبر الفضاء حيث شاء . ولكن الطبيعة البشرية ما زالت هي هي . منذ عهد آدم حتى يومنا الحاضر ، وحتى نهاية الوجود . . . فنحن نعيش ونعمل ، ونحب ونجتاز في التجارب ، ونشيخ ثم تنتهي حياتنا . وقد تختلف المظاهر الخارجية لحياتنا . قد نأكل اليوم أطعمة تختلف بعض الشيء عما كان يتناوله اسلافنا . وقد نلبس لباساً يختلف في نوعه وتصميمه عن القرون الغابرة ، ولكن الحياة في جوهرها ستظل كما هي . أقرأ سطراً من المزامير ، أو قطعة من أشعار بلعام ، أوفقرة من هوميروس ، وأنت تتيقن أن اختبار الإنسان في جوهره هو هو . وان المشاكل التي يصادفها

هى بعينها التى جابهت أيوب قديماً وسببت له الحيرة . وكما استطاع أيوب أن يرتقى المرتقى العسير ويصل إلى القول . . « الآن علمت . . . » هكذا يستطيع كل مجرب أن يرتفع إلى قمة جبال الثقة والايمان بالله ولو بأقدام دامية . وحتى لو وصل الإنسان إلى قاع بحر التجارب ، فان الإيمان ليس ممكنا فحسب ، بل هو قوة غالبة تنتصر وترفع . قال البستانى العجوز « هذا الألم فظيع للغاية ، ولـكن . . . الله محبة » . وقديمـاً قال أيوب « ولوقتلنى فانى أتمسك به » .

واختبارى كطبيب اتاح لى الفرص المتعددة لرؤية الـكثير من هذه الحالات واختبارها عن كثب . فقد أتيح لى أن أشاهد النفوس وهى تصارع الألم ، وتنتصر عليه ، وتصل إلى سلام الثقة مع الله . وانى أعرف أن واحدة من هـذه الحالات المنتصرة لم تصل إلى الانتصار إلا بعـد ان اجتازت وادى الشك وعدم الإيمان . قالت سيدة مجربة « هل تطلب منى ان أؤمن بالله وزوجى يتقلب على الجمر ؟ ان كان الله محبـة ، فلماذا يسمح بكل هذا ؟ »

ولذلك رأيت أن اسوق فى هـذا الفصل الختامى كلمة للذين وصلوا إلى الإيمـان عن طريق الدموع واليأس ، وارتقوا إلى قمة الجبل بأقدام تقطر بالدماء »

قبل كل شيء أود أن أقول ان المسيح لم يقدم لتابعيه وعداً واحداً

يضمن لهم الخلو التام من متاعب الحياة وآلامها . فلم يتقدم بوعد لنا بأن طريقنا سيكون مفروشا بالورد ، بل على النقيض من ذلك نراه يؤكد لنا بأن طريقه هي طريق الصليب والآلام : « إن أراد أحـد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ، ويتبعنى » . فان أردنا أن نتبعه فلا بد أن يتم لنا القول : « فى العالم سيكون لـكم ضيق . . لو كنتم من العالم لـكان العالم يحب خاصته ، ولـكن لأنـكم لستم من العالم ، بل أنا أخترتـكم من العالم لذلك يبغضكم العالم » .

ونحن نرى سيدنا له المجد فى فترة من فـترات حياته يرفض التاج ، والمجد «ويثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم » مع انه كان يعرف تمـاماً ، بأنه لن ينتظره هناك غير الأشواك ، والهزء ، والعار ، وموت الصليب . ومن ذلك الوقت ابتدأ يسوع يتحدث إلى تلاميذه عمّا ينتظره فى عاصمة اليهودية ، كيف أنه سيلاقى الآلام والمتـاعب على أيدى شيوخ الشعب ورؤساء الـكهنة ، وفى النهاية يقتلونه ... لم يكن هناك غموض فى كلام المسيح . فان كان هـذا مصير السيد ، فهل ينتظر العبد أقل من ذلك ؟ وإن كانت هذه نهاية المعلم ، فهل ينتظر التلميذ نهاية غير هذه ؟ . . إن كانوا قد أضطهدونى فسيضطهدونـكم . وان كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامـكم . هل العبد أفضل من سيده ؟ أو التـلميذ أفضل من معلمه ؟

ولـكن كيف نستطيع أن نوفق بين محبة الله ، ومشكلة الألم فى هذا

الوجود ؟ اننا أحيانا نقول « ان كان الرب يحبنا . . ان كان الرب معنا . فلماذا اصابتنا كل هذه ؟ لماذا لا يمد يده لنصرتنا ؟ » إن الألم نراه يتخلل سطور الحياة بأكملها . . . وهكذا . . ترتسم فى مخيلتنا صور كثيرة فى هذا الوجود . من اختبارنا الشخصى ومن اختبار الآخرين ، وحتى من معالم الحياة فى مجتمع الأحياء من غير الانسان . من الدجاجة التى تبذل حياتها فى الدفاع عن فراخها ، إلى طائر اللقلق الذى تروى الأساطير عنه ان صغاره يكبرون وينمون ، بامتصاص الدم النازف من صدره، إلى الأحياء المائية التى يمزق فيها الكبير لحم الصغير ليقتات به . ان التاريخ وعلم الأحياء يقدمان لنا صورا متعددة تظهر لنا أن الألم ، والدم ، ضريبة البقاء ، بل لننظر أيضاً إلى كوارث الحياة الطبيعية ، إلى نيران البركان الثائر ، الذى يدفن قرية بأكملها فى بحارالصخور والمعادن المنصهرة . . . إلى الأمواج الفاغرة فاها لتبتلع سفينة بمن فيها .

كيف يمكن أن يغمض الله عينيه عن آلام المتألمين . ويصم أذنيه عن صراخ النائحين الباكين ؟ ليس هناك جواب على هذه الأسئلة سوى واحد من اثنين : اما ان الله ليست له القدرة على منع هذه الشرور ، أو أنه يترك الحبل على الغارب لقوى الشر فى هذا الوجود ، ولا يبالى بشىء .

ولقد أفضت فى الفصلين الأولين فى الحديث عن هذه المشكلة، ولكن بقيت لى كلمة أخرى . .

هناك رأى أسوقه الآن وهو :

ان سيدنا حينما يطلب منا أن نحمل صليبنا ونسير وراءه ، كأنه يقول ان فى هذا الأمر تكليفا ، كذلك بالتالى فيه تشريف لنا ، فالأطفال الصغار يحملون على الأكتاف ، والكبار عليهم أن يحملوا أنفسهم فى المرتقى الصعب . ان إلهنا يحترم ارادتنا ، ورجولتنا .

قالت لى سيدة باكية وهى تقف أمام جثة زوجها الذى أقدم على الأنتحار « لماذا لم يخبرنى بمتاعبه وهمومه ؟ هل كان يظن أننى لا أستطيع أن أحمل الحمل معه ؟ واننى لست طفلة كما ترى » .

السيد المسيح على هذا القياس يعاملنا ، لا كأطفال ، بل كأخوة أحباء لهم من النصوح ما يعينهم على حمل الصليب .

فى مسرحية مثلت مؤخراً ، يقدم الكاتب منظراً يظهر فيه أحد التجار ، وقد ادخل ابنه شريكا معه . والتاجر يبدو ، وقد جمع دفاتره ، وهو يبحث فيها ، والعرق يتصبب من جبينه . فقد ألمت به خسارة فادحة . ويتقدم الأبن منه محاولاً أن يعرف التفاصيل ، قائلا « اخبرنى يا أبى ». فيجيبه « وماجدوى التحدث اليك ؟ » ... فيحس الأبن بأن كرامته قد اهينت ويهتف فى تأثير « أبى ، أنك ما زلت تعاملنى كأننى تلميذ بالمدرسة : تذكر أننى شريكك واننى أستطيع أن أتحمل المسئولية معك » .

فضلاً عن ذلك فان الألم يسمو بالإنسان ويصقل شخصيته ، ويكمل نضوجه . . .

« . . لأنه لاق بذاك الذى لأجله كل شيء ، وبه كل الأشياء ، وهو آتٍ بأبناء كثيرين للمجد ، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام . لأن المقدس والمقدسين جميعهم من واحد . لذلك لا يستحى أن يدعوهم أخوة قائلا اخبر باسمك أخوتى . . . » .

لاحظ هذا . . بالآلام نحن نكمل نظير سيدنا له المجد . لذلك لا يستحى أن يدعونا أخوة . نحن أخوة المسيح . يا للمركز الرفيع . ينبغى أن نشترك فى آلامه ، لنكون شركاء بالتالى فى أمجاده . ان طريق الصعود ملطخ بآثار الدماء . والذى يريد أن يصل إلى قمة جبال الله ، ليتكمل أولاً وقبل كل شيء بالآلام . وهذه هى قمة الأمجاد ، وهذا بالتالى ثمن الأمجاد .

على أن هناك جانباً آخر فى مشكلة الألم توضحه السطور التالية التى كتبتها فتاة مريضة . . .

فقد كان ضمن نزلاء المستشفى فتاة ضريرة . كتبت يوماً هذه السطور :

سيدى الفادى الحبيب

سر معى . . . سر معى
فى ظـــلامى الرهيب
كفكفن أدمــعى .
ســر معى وسط القفار
كن معى فى الانكسار
عنـد ذا يشرق ليـلى
ساطعاً مثـــل النهار .
هــللويا . .
هــللويا . .
هــللويا . .
يا رجـــاء الطالبين
سر معى . . سر معى
نجـنى فى كل حـين
ماسحـاً مـــدامعى
لست من شر أخاف
فى حمى راعى الخراف
بل اســير مطمئنـاً
لا أهاب . . . لا اخاف
هللويا . .
هللويا . .

هللويا . .

قد يكون فى حمل الصليب تكايف . ولكنه تكليف يسمو بالانسان ويصقل كيانه . ومع ذلك فنحن لا نحمل الصليب بأنفسنا ، ولا نجاهد فى الطريق الشائك وحدنا . فذاك الذى كان يسير بصحبة البشر ، فى طرق فلسطين الوعرة ، منذ الفى عام ، مازل يسير فى صحبة بنى الانسان فى طريق الحياة القاسي . ووعوده ليست لعصر واحد ، ولا لجيل واحد ، بل للاجيال جمعاء مدى التاريخ ، وإلى نهاية الوجود . لقد قال بفمه الطاهر « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر . لا اتركـكم يتامى . انى آتى اليكم » . ومهما يصادفنا فى الطريق إلى المدينة المنيرة ، فهو معنا ، يتعب ويتألم ويسند ويعزى . « فى كل ضيقهم تضايق . وملاك حضرته خلصه » . وكلما كانت السحب اكثر سواداً ، كان هو اكثر قربا منا . .

وما أجمل ما قاله احدهم فى ذلك الصدد :

« ربى ، ان السحب هى غبار رجليك . ما أقربك إلينا فى اليوم العاصف المطير » .

لقد كان التلميذان يسيران فى القديم فى الطريق إلى عمواس . وهما عابسان يتطارحان معاً بالحديث عن صليب المسيح . وكان محور حديثهما « كنا نرجو . كنا نرجو » . والآن يبدو أن الرجاء انتهى والأمل لم يعد له وجود . . فذاك الذى كان موضوع رجائهم ، قد شاهدوه بأعينهم . معلقا بين اثنين من المجرمين ، ثم تتبعوه حتى اوسدته الأيادى فى القبر ووضعت على بابه

صخرة هائلة . وهكذا كانت نهاية هذه الحياة المباركة المتألقة . هكذا ظنوا فى أنفسهم ولكن هل كانوا محقين فى يأسهم وهم يجرون اقدامهم إلى بيوتهم الحزينة ؟ كلا ، ففى وسط الطريق . . طريق الالم والهموم والمتاعب التقى بهم المسيح . وبدل همومهم سلاما ، ومتاعبهم افراحاً حتى قال الواحد لزميله « ألم تكن قلوبنا ملتهبة فينا ، وهو يتحدث إلينا فى الطريق ؟ » .

ضمن سجلات رحلات الأستكشاف لولاية جورجيا بأمريكا يتحدث أحد المستكشفين عن شعوره هو واثنان من زملائه أثناء استكشافه لتلك المجاهل الثلجية الرهيبة . يقول ذلك الرحالة : خلال سيرنا الحثيث المضنى ، فوق سفوح الجبال الرهيبة ، والأخاديد العميقة المكسوة بالثلوج ، احسست بأن شخصا رابعا يسير معنا نحن الثلاثة ، واننا لا نسير بمفردنا . ولم أقل شيئا عن هذا الشعور لزميلى حتى فوجئت بأحدهما يقول لى « ايها الصديق ألم نشعر بأن شخصا آخر يسير معنا ؟ . . . وهذا كان شعور الثانى بعينه ان هذا ليس هذيانا ، ولا خيالاً باطلا كاذبا ، وإلا لكان شعور شخص واحد . ولكنه تأكيد لذلك الأختبار الذى كتب عنه المرنم منذ آلاف السنين قائلا : « أن سرت فى وادى ظل الموت ، لا أخاف شراً لأنك أنت معى . عصاك وعكازك هما يعزيا ننى » .

حينما مات والدى كنا أربعة أطفال صغار علاوة على الأم الأرملة . وبعد انتهاء مراسيم الجنازة والعزاء ، جمعتنا أمى حولها . وسكبت قلبها

أمام الله ، فى عبارات ممتزجة بالدموع والتنهدات. فقد كان المستقبل مظلماً للغاية . لم يكن هناك بصيص من الأمل ، فلم يترك والدى لنا شيئاً .

وبعد برهة رأيت والدتى تكف عن صلاتها وتقوم من مكانها ، وتسرع إلى الخارج ، وتفتح الباب ولم نفهم بالطبع شيئاً حينذاك . ولكن أمى كانت لا تمل بعد ذلك من أن تروى لنا القصة . فقد سمعت بإذنيها صوتاً يناديها باسمها ويقول « لا تخافى . امتلئى شجاعة . فأنا معك على الدوام». تقول أمى « وخرجت لأرى من يكون هذا الصديق . وفتحت الباب ولم أجد أحداً . ولكننى عرفت من هو صاحب ذلك الصوت . وحتى هذه الساعة لم أشك لحظة واحدة فى محبته وعنايته » .

أقول هذا الأختبار ، ولا أعرف إن كنت ستصدقه أم لا ، أم لعلك تجادل محتجاً بأن هذه هلوسة سمعية أملاها عقل مضطرب بالأحزان . ولكن الألوف من قرائى الأعزاء يستطيعون عن ضمير سليم ، وقلب مستريح ، أن يؤكدوا صدق عناية الله بهم ، فى ظروف أقسى وأشد سواداً . وعن نفسى أقول ، أنا الذى قضيت سحابة عمرى وسط المرض ، والموت والجثث المتآكلة ، والأهوال التى تقع كل يوم تحت سمعى وبصرى ، أقول أنه ما من قوة أعانتنى طيلة هذه السنين ، إلا إيمانى بالله ، وجوده ، ومحبته وعنايته . أنى أؤمن مع تنيسون بأن كل خطوة من خطوات الحياة لها هدفها ، ورسمها فى كتاب عناية الله ، وأن الله لن يلقى حياة واحدة فى

سلة المهملات ، بل لكل شيء ترتيبه ووضعه الصحيح ، أنى أؤمن أن وراء متاعب الحياة والموت ،يوجد القلب المحب ،والأذرع الأبدية .

ونظير «ابراهام لنكولن »رأيت بعيني رأسي رجالا ونساء،يجثون على ركبهم بدافع الشعور الملح القوى ، لأنه لا مكان سوى عرش الله يلجأون إليه ساعة الحاجة. ورأيتهم بعد ذلك يقومون إناساً جدداً فى كل خلية من كيانهم .

ففي ظل الموت ، تتحول الظلمة إلى نور وإشراق ، وفى وجه الألم ، يمتزج الكأس المرة ببلسم التعزيات .وفى « متحف القلوب الكسيرة » رأيت مرضى أصبحوا جلداً على عظم بسبب داء الطاعون الأبيض ، كما يسمون مرض السل الرهيب ، ولكننى شاهدتهم حينما تأتى ساعة الانطلاق ، يعبرون المياه السوداء ، وترانيم الظفر على شفاههم ، ورأيت أيضاً ضحايا السرطان يلاقون ملك الأهوال بابتسامة الثقة والإيمان . ورأيت أقارب هؤلاء ، وأولئك، يوسدون أحباءهم الثرى، وهم ينشدون أناشيد الرجاء .

إننا لن نستطيع أن نعلل هذا إلا بأمر واحد : ان هناك قوة تفوق قوة الانسان ، وأن أولئك الذين استطاعوا أن ينتصروا ، قد وصلوا إلى الانتصار عن طريق تمسكهم بهذه القوة العظيمة ، وليس أمامى فى ختام هذه السطور إلا أن أكرر ما قاله السيد المسيح يوما لأتباعه :

« ليكن لكم إيمان بالله » .